الانحدار

محمد المنصور الشقحاء

الانحدار

(حكايات وقصص قصيرة)

دار الفارابي

الكتاب: الانحدار
المؤلف: محمد المنصور الشقحاء
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2009
ISBN: 978-9953-71-400-4

© **جميع الحقوق محفوظة**

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

في البدء

يضم هذا الإصدار القصص الآتية:

1 ـ "الانحدار"، الصادرة عام 1413هـ/ 1993م عن نادي الطائف الأدبي.

2 ـ "الرجل الذي مات وهو ينتظر"، الصادرة عام 1415هـ/ 1994م عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

3 ـ " الطيب"، الصادرة عام 1418هـ/ 1997م عن وكالة الصحافة العربية للنشر.

4 ـ "الحملة"، الصادرة عام 1423هـ/ 2002م عن نادي جازان الأدبي.

النهر

وأخاف أن أخسر. لقد غدت التضحية عظيمة، إنما الشعور بالنهاية أعظم، على أن أبحث عن البديل وحتى لا يكون التردد موقف حسم ينهي التطلع. قفز من مكانه حيث كان يقبع بين رفاقه داخل إحدى صالات المعسكر أمام خارطة للوطن السليب تحدد معالم القدس ورام الله وقلقيلية المبادة، الخطوط الحمراء والسوداء والعلامات المميزة لكل موقع تتوهج مثل ثريا علقت في فضاء لا حدود له.

ـ أقوم بهذه المهمة

حدق إليه الرجل الذي يقف أمام الخارطة ثم حرك العصا الطويلة التي يستعين بها في تحديد المواقع المطلوب اجتيازها للوصول إلى الهدف وهو إحدى البوابات الأولى لمدخل المفاعل النووي في الصحراء.

توقفت الكلمات في داخله، عاد الحوار الذي كان يتفاعل في أعماقه منذ بداية الدرس الجديد الذي استوعبه من خلال ما يقوم من شواهد وهمية.

ـ سوف يكون الأمر سهلاً بعد اجتياز النهر.

ـ إذا اجتزت النهر.

وهنا تذكر أنه لا يوجد نهر إنما سياج من الأسلاك الشائكة والحواجز الرملية المرتفعة التي عبرها يتم اكتشاف كل تسلل، النهر يقبع في الجهة الشرقية من الحدود إذ عليه التسلل إلى الأردن ومن هناك يكون العبور.

لم تخرج الكلمات من داخله هذه المرة إنما عاد إلى مكانه بين نظرات زملائه الدهشة ثم جلس وكأن الأمر لا يعنيه.

عاد إلى عالمه الوهمي مكوّناً معادلة حسابية رهيبة بين الخوف والانتصار. لا يدري متى قدم إلى المخيم وكيف انخرط في المقاومة الشعبية، كل مخزونه من الماضي أنه طالب في إحدى كليات جامعة وارسو يقرأ الأدب، يبحث عن أسباب الخوف من الخسارة في الشعر اللاتيني ولماذا كانت الإلياذة تتحدث عن الانتقام كما تؤكد حرب طروادة، بخلاف الشهنامة التي تتحدث عن الحقد والكراهية أو الأودية ورحلة الغضب لاسترداد الزوجة وكيف اندثرت هذه الجحافل من الشعوب ومتى يتحول العالم كما تقول النظريات الجغرافية إلى دائرة واحدة من الأرض كلما اختفت قطعة من الأطراف البعيدة تكوّن امتدادٌ يوازيها في منطقة الشرق الأوسط.

انتهت المحاضرة وأخذ البعض طريقه إلى باب الصالة في ضجيج وأحاديث متناثرة. وأخذ يتابع الجمع السادر. إحداهن تقترب من المحاضر وتمسك به تتحدث إليه، تحرك كفها إلى رقبته وتطوقها بكفيها، يتدلى لسان المحاضر، يمتد إلى الأرض، يزحف باتجاهه، مد كفه وجسّه بأطراف أصابعه. تنبه فإذا المقاعد فارغة وصمت أسود يشمل المكان، اللسان يتقلص فغادر مقعده واتجه إلى الباب المشرع.

الساحة التي انتصبت فيها سارية العلم شبه فارغة لانشغال الجميع بما بين أيديهم من مهام وفي دواخلهم من أمان، اتخذ طريق البوابة مجتازاً رجل الأمن المدجج بالسلاح، فلم يلحظ أن هناك من يتعقبه. الطريق الطويل إلى درعه يمتد أمام ناظره، ووهج الظهيرة يحتضن المكان ووقع خطواته على الإسفلت يشاركه في الحديث.

السيارات تمرق الواحدة تلو الأخرى. وحافلات الركاب تحاول لفت انتباهه بمنبهاتها مرق أمامه شهاب ناري، تصلب في مكانه ثم انحرف يميناً واختفى خلف جذع شجرة هرمة. يعرف أنه بعد خطوات ثمة مقهى يرتاده سائقو عربات الأجرة وسيارات الشحن.

ـ أهلاً.

الصوت يعرفه. أخذ يقدح زناد فكره قبل أن يلتفت

نحو مصدر الصوت، ذاكرته لا تسعفه، التفت حيث المحاضر وثلاثة من رفاقه، فدبّ في داخله إحساس بالخوف، سحب أحد المقاعد وجلس معهم أخرج علبة السجائر فأشعل أحدهم سيجارة.

قادته خطواته إلى زاوية الحمامات فوجد عند المدخل رجلاً وامرأة زرعت ابتسامة صغيرة على وجهها وغادرت المكان. اقترب الرجل منه، بادله النظرات ثم دخل أحد الحمامات. بعد ذلك بارح المكان بسرعة بينما كانت المرأة تهم بركوب عربة جيب صغيرة، لوّحت بكفها وهي تدير المحرك، وما إن استقر على المقعد حتى كانت كفها تربت على كتفه ضاغطة عليه.

طلبت منه مرافقتها والسيارة تقترب من الحدود أوراقه، قبلته على خدّه فاسترخت كفه على فخذها، تجاوزت ردة فعله. وهي تقترب من بوابة العبور كان صدرها البارز يقفز من فتحة الفستان، ختم الموظف الجواز فتحركت العربة وعاد الاطمئنان.

ـ وصلنا.

قالت ذلك بهدوء فشعر أن مهمتها انتهت وأخذ يلملم بعض الخوف ليقول شيئاً. انتظر حركتها رافعاً كفه إلى وجهها لامس خدها، انحرفت بالسيارة نحو حقل مهجور تناثرت أشجارهُ أخرجت لفافة من خلف مقعدها.

ـ خارطة للطريق ونقود.
ـ وأنت؟
ـ مهمتي انتهت.

اقترب منها، طوّقها بذراعيه، دفن وجهه في شعرها وجسدها يرتعش. لم تقاوم اندفاعه، زهورها تتفتح وحروفها تتناثر، غادر العربة صامتاً واختفى بين المنحنيات، شعر بالجوع، نشر الخارطة التي لا يوجد بها سوى خط واحد، بدأ من النقطة التي ترجل عندها، كل شيء واضح.

ـ هاهو المطعم.

حدّث نفسه بصوت مسموع كأنه يرشد شخصاً آخر.

اقتربت خطواته من مدخل المطعم، تذكر أنه لا يعرف اسمه، فأخرج جواز السفر من جيبه. اختار طاولة بقرب النافذة شعر بالأمان. أخرج من اللفافة حافظة النقود لدفع الحساب فجحظت عينا النادل وهو يكتشف ضخامة الأوراق النقدية.

غادر المكان ..النهر أمامه فقد وصل إلى نهاية الخط المرسوم عليها، جلس على حافة النهر.. يتابع حركة الطيور وأشباحاً تتحرك زادتها العتمة وحشة، رطوبة الجو منحته حذراً لذيذاً تذكر معه مرافقته فغرس أصابعه في

الرمل. دوى طلق ناري اخترق صدره فتح فمه ..انساب الدم، أصابعه تتقلص وكفه تحتضن حفنة من الرمل، انكفأ على وجهه، الأشباح تختفي وخرير المياه يتلاشى..يتعفر وجهه الأبيض المبتسم بالتراب والدم المنساب يتشربه الرمل.

البكاء

استقر أخيراً. لم يعد الأمر يحتاج إلى احتراق، وقد اتضحت الرؤية وأصبحت النتائج غير مجدية برغم كل المراجعات. الشارع المضاء يمتد في بله وتيه، وهو يحتضن السابلة من العربات والناس وكائنات أخرى لم يستقر أحد حتى الآن على أسماء لها.

ـ أتراك انتظرت كثيراً؟

ـ أتدركين الزمن في أعماق المنتظر؟

ـ إذا تأخرت.

ـ لا أدري إنما تفحصيني ..هل ما زلت في حجمي الطبيعي؟

اتجه الاثنان إلى بوابة المكتبة المشرعة. لا يوجد مرتادون حتى هذه اللحظة. اختار كل واحد منهما مساراً يبحث عبره عن مطلبه بين الكتب المعروضة، حسب التخصصات الموزعة.

أخذ يتابعها عن بعد محاولاً رصد خطواتها وارتعاش أطرافها وهي تتجول في خجل وحياء بين الكتب تحت نظره.

وانطلقت صفارة الإنذار معلنة أن في الأجواء طائرات مغيرة.. تصبب عرقاً وتلفت حوله، أخذ يبحث عنها بين أكوام الكتب ثم اندفع خارجاً إلى الشارع؛ الحركة كما هي، السابلة، السيارات، الأبواق المزعجة والشمس الساطعة.

استرد أنفاسه، أخرج منديلاً من جيب ثوبه وأخذ يمسح العرق عن جبينه، هدأت أنفاسه وعاد إلى المكتبة.

ـ أين أنت؟

كانت جالسة على المقعد المحاذي لطاولة المسؤول عن المكتبة، رفع بكفه المنديل لمسح جبينه وتصلبت نظرته على المنديل الذي أصبح أحمر يقطر دماً.. حدّق في المنديل فاغراً فاه، اقترب من كوة ضوء مدققاً فاحصاً يده التي تمسك بالمنديل ملطّخةً بالدماء .

لا يوجد جرح. أمسك بطرف أنفه وأدخل أصابع يده حتى سقف الحلق وأخرجها. تراجع إلى الخلف حتى حاذى المقعد الآخر المنتصب أمام طاولة مدير المكتبة، جلس وقد سرى في أطرافه برود عجيب. لم يعد هنا أحد سواه.

ـ أنت ماذا حدث؟

ـ ....

ـ أتوقفت فيك الحياة؟

وتحرّكت من مكانها وهي تلمح المسؤول عن المكتبة يقترب منها. تلفتت خلفها فلم تجده وعادت سريعاً هجمت عليه بكلتا يديها ضاغطة على كتفيه في مداعبة خشنة للقيام، فتهاوى أمام الموقف الجديد.

الطنين يلف المكان ولا أحد. الساعة مازالت عقاربها العاشرة صباحاً.. الموعد التاسعة حسب الاتفاق.

صالحة:

ارتديت ملابسي استعداداً للذهاب.. خرجت من غرفتي وإذا بأمي تجلس في الصالة.. أخذت أداري ارتباكي الساعة الثامنة.

ـ أين خالد؟

ـ خرج.

جلست على الأرض بجوار أمي.

ـ والسائق؟

ـ قبضت عليه الشرطة.

مرة ثالثة تأملت الساعة.. أسرعت إلى الهاتف، طال الحديث وارتفع أذان الظهر.

عمر:

أخذتني الحماسة فأنهيت إجراء الأوراق التي بين يدي، الثامنة والنصف كنت أغادر المكتب وفي التاسعة تماماً كنت أنتظرها تحت لوحة المكتبة التي لم تشرع بابها.

زادت حركة الطريق والمكتبة والمحلات التجارية تشرع أبوابها.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. تجاوزت عقارب الساعة العاشرة فانكفأت على مقود السيارة أبكي.

الانحدار

(1)

علمت أخيراً بأنني ممنوع من الكتابة، اكتشفت هذا من همس حضور المناسبات الاجتماعية التي تقوم بعض الصحف بإجراء لقاءات أو ندوات حولها من باب الالتحام بالجهات المعنية بالتطور الإنمائي فتغيب مشاركتي ويتجاوز تعليقاتي من خلال مطبخ النشر.

أخذت أفكر بقسوة في الانتصاب العدواني الذي مارسه شيء في داخلي دون مراعاة للظرف الذي أمر به والإرهاق الفكري الذي أعانيه بسبب عوامل عدة منها العزلة والانحدار نحو الهاوية وحيداً متخلياً عن كل المواقع التي استطعت مع الزمن ربحها.

لم أجد بعد هذه المرحلة أفضل من كلمة الربح لأن هذه الكلمة هي الوصف الحقيقي لكل المكتسبات التي

خلقتها وحتى تكون المعادلة صحيحة، لابد من الخسارة وها أنا أركض في طريق الهاوية وكل ما أخشاه أن أرباحي تنتهي وبالتالي أفقد رأس المال وأشهر إفلاسي كما هو وارد في سوق الاقتصاد.

انتظرت كثيراً هذه اللحظة التي أقف فيها مستقبلاً الضيوف. الأضواء تملأ المكان كما أنها تضيء داخلي بقوة، إنه زواج ابنتي المكسب الأول الحقيقي في حياتي وبرغم الضياء أشعر بحاجة إلى البكاء. أخذت أبحث عن مكان منفرد حتى أحقق رغبتي في البكاء لكن جميع الزوايا والغرف تعجّ بالزوار والمشاركين في المناسبة.

إنها تقف وحيدة.. دب هاجس آخر في داخلي وعدت إلى الحركة وقد أجلت رغبتي في البكاء. في داخلي نقطة داكنة أشعر بحرقتها وحجم مساحتها. العيون تتابع خطواتي تبحث عن الأشياء المربكة والناقصة في صوتي وفي اكتمال أدوات الاحتفال، وأنا أفتح كوة للريح الطيبة لتعبر كواليس أعماقي المعتمة المتوقفة عن الأشرئباب والتجاوز. إنها النهاية الحتمية.

ـ حامد.. حامد..

الصوت قريب أتذكره. إنما من يكون وقد تجاوزت

عقدي الخامس، الشيب يملأ رأسي ودمعة مازالت منذ عقد تستقر في مقلتي.

ـ حامد.. حامد. .

الصوت يقترب أكثر. إنه يرفض كل الهواجس ويحقق الانتماء وطيب رائحة الوطن، الشارع المترب، بيوت الطين، وشآبيب المطر والأسقف الواطئة وقد أخذت تنزّ ماءً معبرة عن فرحها بالشتاء.

ـ حامد؟

ـ نعم.

ـ مبارك.. زواج سماح.

ـ سماح؟

الصوت يأخذني بقوة إلى الزمن القديم الذي رفضته بتصرف أحمق ذات يوم، كنت أركض حتى تعثرت وقد تقطعت أنفاسي لأفيق على صوت سماح.. التي انتقلت معي إلى العالم الحر في هروب سحق وجودي، لتصبح وقد غدت شابة / أفنان / وامرأة مكتملة ناجحة في عملها.

الصوت يزداد معرفة وقوة. كان المطر ينهمر وسقف الغرفة ينزّ ماء، دوائر الزمن تدور في رأسي فانهرت في

مكاني ونقر الدفوف والغناء يشتعل في الداخل، وشبح الماضي المتناهي طولاً يغادر المكان حاجباً الضوء المنتشر في كل زاوية.

(2)

طريق الانحدار عميق أطول من كل المعادلات الحقيقية. يخيم الهدوء عليه وكل الأشياء التي أتجاوزها ثابتة. شخوص آخرون توقف بهم السير في أماكن متباعدة، حتى الآن المؤشّرات أفضل.. إنه الوطن، أخذت أكتب الكلمة بأشكال متعددة وأقلام متفرقة وأحبار مختلفة، ثم أخذت أرسم حروف الكلمة كما يتم نطقها واو.. طاء.. نون.. واو.. طاء.. نون، ومع كل حرف أجتاز مسافة أكبر ويتكوّن في داخلي طاقة أكبر.

ـ حامد.. هل أكملت دراسة قضية الأستاذ فاضل؟

ـ أكاد أنجز تدوين ملاحظاتي.

ـ لقد تأخرت..

ـ إنها ملاحظة ديوان المراقبة العامة.

كان مدير الإدارة التي أنتمي إليها يستعجلني بمضاعفة الجهد لإنهاء دراسة قضية أحد أقاربه.

ـ الأستاذ حامد؟

ـ أهلاً.

ـ فاضل عبد الدايم.

قفزت من مقعدي واقفاً كمن لدغته أفعى. تردّدت في مد يدي نحو الكف الممدودة، هناك قوة تعتمل في داخلي فأخذت أتفرّس في الوجه المنتصب أمامي، وأخيراً صافحته مرحباً ودعوته للجلوس وواصلت كتابة ملاحظاتي.

ـ لو سمحت كرت العائلة.

أخذت أطابق الأرقام والأسماء.. سماح زوجه.. سماح ابنة سعد... سمر.. واكتمل عدد الأسماء ومطابقة البيانات.

ـ هل الكرت جديد؟

ـ نعم وهنا بين الأوراق صور من الكروت القديمة.

ثم وقفت وأنا أمد كفي:

ـ سوف يتم صرف باقي الاستحقاق بعد يومين.

نهض وغادر الغرفة.. وعدت إلى الأوراق.. أخذت أدقق في الأسماء المكررة ولما انتهيت سلمت الملف للمراسل لإيصاله إلى مكتب المدير العام لتوقيع أمر اعتماد الصرف.

ـ تفضل أوصلك.

تزامن خروجي من المكتب مع تحرك عربة فاضل الفاخرة. وأنا أتجه نحو عربتي الواقفة في فناء مبنى الدائرة، أرعبني الصوت، قررت أن أعود إلى المكتب، كانت تجلس في المقعد المجاور، شيء يدعوني لتلبية الدعوة، ابتسامتها الصغيرة تكبر.. أخذت أتراجع.. خطوة.. خطوتين، ابتلعني المبنى وأخذت جدرانه تسحق جسدي.

(3)

الزمن كان قوياً.. قوياً أكبر من عشق المكان. شعرت فيه بالإرهاب، عندما قررت الزواج جاء الاختيار وجاء الانفصال/ هربت إلى خارج الحدود لعلي أجد الهدوء الذي فقدته.

وتوقف الزمن. لم يعد الرفيق الحتمي الذي يسير كمرافق فعدت وقد غطى الشعر الأبيض رأسي، إنهم يدفعون الإنسان إلى الموت، حتى الأصدقاء.. كلهم عفن.. كلهم عفن.

ـ أبي خير.

ـ أبداً إنها ذكريات النزوح.. والوطن.

سوف يكون لنا بيت.

ـ أجل.. أجل.

ـ وسوف نواصل.

حطّت الطائرة في المطار. لم يكن هنا أحد في صالة القادمين المكتظة بالمستقبلين.. المكان ضيق والعيون تلاحق المتحركين، ارتبكت خطواتي ومع ملاحقة سائقي سيارات الأجرة أخذت أستنشق الهواء الرطب.

اختلطت الصور.. تراكمت الرؤى، الهاجس.. أكبر.. أكبر، واعتدت السكون القاتل، مشاركاتي تسحل على أبواب الصحف وإن استشهد الكتاب بأفكاري.. هاهم جميعاً في حفل زفاف أفنان.

سوف أجلس وحيداً في الدار. لكنّ الصوت القادم من الماضي سماح الخطى الوئيدة، والجمع ينسحب بينما بقيت جالساً على أحد مقاعد صالة الاستقبال حتى أحقق رغبتي المؤجلة في البكاء.

الرقية

توقف عن التفكير وأخذ يقلّب ما بين يديه من أوراق مهمة.

ـ كانت هنا البارحة.

تلفت حوله وأخذ يغير من جلسته بين وقت وآخر.

قال بصوت مرتفع:

ـ ياترى أين اختفت؟

تأمل الجدران المحيطة به وأثاث الغرفة، توقع أن يقول له وهمه.. إنها هنا، حرك يده اليمنى، ألم في داخله يدعوه إلى تحريكها بشكل آلي.

انفجر الموقف، لم يعد لديه بصيص أمل في العثور على الصورة التي كان كل صباح يقدم لها التحية وفي المساء يقبلها وهو يغادر مكتبه.

إنها كائن حي. تمنطق الحياة وتزرع البهجة في داخله، تغرقه في دوامة من العمل الجاد والارتياح النفسي الكامل.

كل ما يتذكره أن ظرفاً غامضاً جمعه بصاحبتها فغدت زوجته. وكذلك فإن ظرفاً غامضاً دفع صاحبتها إلى هجره

وطلب الانفصال. ولم يتأخر في تحقيق رغبتها لشعوره بأن الأمر سوف يصل إلى مرحلة يفقد فيها ذاته، وبالتالي يفقد الاحترام الذي تكنه له.

ولم يتبقّ منها سوى هذه الصورة التي يجدها حجاباً يحول بينه وبين نسيان وجوده؛ وحرزاً يقيه المصائب والوقوع في الخطأ.

نهض من مقعده بعد أن بعثر الأوراق التي فوق المكتب وخرج لا يلوي على شيء وهو يهمهم:

ـ إنهم ينتظرون حضوري.

الطريق طويل والحديث يحتاج إلى إعداد. توقف أمام حاجز تفتيش للشرطة، لم يتبق سوى عربتين ويجتاز الموقع، فتح زجاج الباب المحاذي له، تابع بنظره الرجال المدجّجين بالسلاح:

ـ إنهم ليسوا من رجال السير.

توقف وسط الحاجز فطوق العربة أربعة أفراد. قدم لأولهم هويته بينما فتح الآخرون أبواب العربة فاحصين داخلها، أنزل كفه عن مقود العربة ثم وضعها على فخذه وقد طأطأ رأسه لحبس الخوف وحجز القلق حتى لا يفقده الموقف كيانه الإنساني، وإذا بشيء صلب يطعنه في جانب رأسه وصوت أجش يخترق عالمه المختفي.

ـ وهذه من تكون؟

رفع رأسه متفحصاً مؤخرة البندقية التي احتكت برأسه. تذكر عصا المدرس الغليظة التي يلكزه بها هو ورفاقه في الفصل عندما يطلب منه أن يقرأ الدرس أو يعيده ليتأكد من متابعتهم.

تنبه وحدق في صاحب الصوت الواقف بمحاذاته. ارتبك وتأخر في الرد وهنا مد الرجل يده داخل العربة وسحب الصورة من تابلوه العربة وبصوت خافت:

ـ إنها صديقة.

كان يتوقع انتهاء التوقف وحالة التفتيش عند هذه المرحلة. غير أن الأمر تطور إذ دخل العربة أحدهم شاهراً مسدسه بينما صادر صاحب الصوت الخشن الصورة، لا يدري أين يتجه وكل ما تبادله مع مرافقه إشارات تدله على الاتجاه الذي يسير فيه حتى دخل سياجاً من الأسلاك الشائكة ومرتفعات الرمل.

ترجل من العربة . أمام خيمة تبدل لونها بسبب الشمس طلب منه مرافقه الوقوف، أيقن بعدم الاهتمام بما يدور في داخل الخيمة فأخذ يتلفت في سكون مستبيناً المكان.

ولم يحس بأن أحدهم خرج من الخيمة تأمله قليلاً ثم صوّب نحو رأسه مسدساً يحمله وأطلق عياراً واحداً، التفت على أثره عنوة وقد انبجس الدم من صدغه، كانت الصورة إلى جواره بكل عنفوانها. ثم انكبّ على وجهه.

القطار

منذ زمن طويل تسرب قرف لا أدري مصدره إلى داخلي معلناً رفض الكتابة عن انسحاقي، فسحل ما تبقى من وجودي فوق شوارع مدينتنا حتى لا أستمر في الرفض الصامت لكل ممارسة غبية.

استقلّ القطار المتجه إلى الشرق. بؤبؤ عيني اليمنى في محاولة تمويه لخرق الصمت، فإذا برجال وإناث يحملون معاول لحرث الأرض ويرتدون خوذات الحرب يعترضون سبيله، وقد تهشم جزء من الخط الحديدي وجرى إشعال النار في حطام أشياء لم أستطع تمييزها، إنما أدركت أنها مكونات خاصة جرى نهبها.

الحزن داخلي اجتاح كل مقاومة للانبثاق. وبالتالي حرم علي التطلع إليها، سوى حلم يرافقني عندما أمشي وحيداً أو حين أختلي بهمومي في ركن مهجور من المقهى الذي أهرب إليه كل ليلة.

ـ أين أنت يارجل..؟

سؤال غريب. فأنا موجود وجود هذا المكان لا أحد

يستطيع تجاوزي؛ هذا ما واجهني وأنا أدخل أحد المحلات التجارية، إذ نهض صاحب المحل وأخذ يرحب بي وعندما لم أشتر شيئاً قدم لي هدية زادتني تخاذلاً.

ـ أبحث عن شيء تحت ملابسك.

ـ وماذا تريد؟

ـ أعرف لون سروالك الصغير.

استلقت على قفاها وهي تقهقه بهستيريا أحبها. فقدتها منذ ألف عام.. تذكرت الدم الذي تمدد في شوارعنا ابتداء من مدخل القرية الذي لم يصمد مقاوموه في وجه جنود الاحتلال، وهم يقتحمون كل شيء مطلقين الرصاص في كل اتجاه.

نفقت حتى الأبقار والحمير وأخذ الدجاج يهرب هنا وهناك في بحث مستميت عن مكان آمن، والحمام يشكل مجموعات تهاجر سماء قريتنا كما هاجر شبابها منذ الاحتلال الرهيب وتركنا الجميع، لم يعد هنا غير أطلال ونحن الاثنين.

كنت أجلس على عتبة باب دارنا الذي تهدمت شرفاته. ومريم تجلس خلف إحدى الطاولات في مدخل المقهى الصغير الذي ورثته بعد مقتل والدها في الهجوم الأول للغزاة.

كان همي الأول معرفة لون ملابسها الداخلية. فقد

لمحتها ذات ظهيرة تقوم بفرد بعض قطع القماش الصغيرة على حبل الغسيل فوق سطح دارها من نافذة غرفتي منذ ثلاثين عاماً، فأسرعت إلى الشارع واتجهت إلى الدار التي تقطنها مع أسرتها ولم اهتم بنداء والدها الذي يشرف على طلبات زبائن المقهى الذي يشغل الدور الأرضي من المبنى مع محل لبيع الفول والحمص.

أعرف طريق السطح. توقفت عن الغناء عندما وجدتني أمامها وأنزلت إزارها على ساقيها وذراعيها، اقتربت من سلة الغسيل وأخذت أساعدها. كنت أختار الملابس الصغيرة ذات اللون المميز إذ سرى ضحكها في جسمي كشرارة من لهب، فأستفزها ملوحاً ببعض القطع الصغيرة قبل نشرها على الحبل وهي تطاردني على السطح.

ـ ماذا جاء بك؟

ـ لمحتك من نافذة غرفتي.

ـ أعلم.

ـ شيء دفعني.

ـ إلى أين؟

ـ إلى هنا.

كنا نجلس متجاورين على مقعد خشبي . بعد فراغ سلة الملابس وابتلال ثيابنا، كانت ترتعش، والعرق يتصبب من جبينها فأخذت أمسحه بكفي وقد أسندت

ظهرها ورأسها إلى الجدار المنتصب خلفنا، صدرها يرتفع وينخفض، شعرها القصير يندس تحت غطاء شفاف، أنزلت كفي فوق عينيها المغمضتين ثم فوق شفتيها وواصلت حتى هصرت صدرها.

كثيرة هي الأشياء المختفية في حياتنا. كان عام 1946م مرحلة انفصال حقيقي لجميع الأسر، لم يتبق سوى الجذور التي تنتصب فوقها قامات تجردت من الغصون وتشقق عنها من عوامل الطبيعة اللحاء. ما عدا أسراً تعد على أصابع اليد الواحدة ما زالت لها فروع مثمرة لم تتأثر حتى من عام 1956م ولكن نزفت الدم عام 1967م.

ـ مريم، في هذا المقعد كان والدك يجلسني.

ـ وقدم الشاي مجاناً.

ـ تعرفين؟

ـ كان يقول لنا.

ـ إنما أين والدتك؟

ـ نزحت مع أبناء عمها.

كل شيء مهدم يملأ المكان عفناً. قررت الهجرة بعد أن بدل الاحتلال معالم القرية.

ـ لماذا لا نتغدى؟

ـ وعمال المنجرة؟

ـ غيابك لا يؤثر في جدهم.

الفرح الذي توقعته وأنا أجلس لم أجده. سافرت عشرين عاماً ولما عدت كانت موجودة، ها نحن الآن اثنان وحيدان كل ما حولنا بقايا ذاكرة، كانت تتحرك وحديثها يتواصل قررت مشاركتها في الحركة، قادني صوتها، ظهرها إلى الباب، يدفعني جسدها إلى قراءة تفاصيله وتخمين لون سروالها الصغير، شعرت بلفح أنفاسي فالتفتت ضاحكة، طوقتها بذراعي، تقابلنا في قبلة تأجل تنفيذها أربعين عاماً.

الرواد يتقاطرون. لم أكن أتوقع وجود زبائن ورواد فهذا الجزء القديم من القرية مهجور، شعرت بالغربة ومريم تختفي وأحدهم يتسلل إلى الداخل، طال الترقب ليخرج ثم يتسلل آخر لم يطل مكوثه وحين أطلت مريم التف حولها الجميع.

ـ أعرفكم يا جماعة إلى رفيق الطفولة مازن، أسرته جيراننا.

انفرجت الوجوه التي لم تتجاوز العشرة، مددت كفي التي هرب منها الدم مصافحاً وغادرت المكان.

ولم أعد أذكر ماذا حدث. دوى انفجار هائل فالتفت فزعاً وواصلت الطريق، عربات العدو تطوّق المكان. يصلني أزيز الرصاص أنا وخطواتي ثابتة: واحد.. اثنان..

واحد.. اثنان، دخلت المنجرة التي ورثتها أنا وإخوتي عن أبي. حشرت جسدي خلف المكتب وطلبت من صبي المقهى الذي اقترب مني شاياً ونارجيلة.

توقفت عربة الشرطة أمام باب المنجرة. ترجل منها الشرطي ودخل المقهى ثم عاد وتجاوزني ليدخل إلى ورشة المنجرة ثم خرج وهو يمسك بعامل وركبا العربة التي غادرت الشارع بصوتها المميز.

أخرجت من جيب القميص منديل قماش لونه أحمر. مسحت به وجهي وزجاج النظارة ولما أعدته إلى مكانه، أخذت أصدر صوتاً كصوت القطار ثم تركت مقعدي وغادرت المنجرة متخذاً مسار سيارة الشرطة غير مبالٍ بنظرات من أجتازهم.

العشاء

أتوقف أحياناً عند تقاطع طريقين. الأول يؤدي إلى منزلنا القديم، حيث يسكن جدي وأسرة والدتي، والآخر إلى منزلنا الكبير المحاط بحديقة واسعة، سائق العربة التي أزاحم فيها إخوتي يتحدث إلى أحد أبناء جلدته وكأن أمرنا لا يعنيه.

لقد دب في تعاطف أنثى . بعد أن لمحت إحدى زميلاتي بأنه جميل الطلعة فلم أتجاوز هذا الشعور إلى البوح وأخي يحل مشكلتي أحياناً بمرافقته عند الخروج.

ـ لقد تقدم أحدهم اليوم طالباً يدكِ.

كان أبي هو المبادر بالكلام ونحن نتحلق حول التلفزيون نتابع مسلسل السهرة العربي.

ـ كل ما أعرفه أنه ابن صديق أثق به.

أعرف أن الكلمتين الأخيرتين من عنده لمعرفتي الكاملة بأسلوبه المجامل والذي أثر في الأسرة.

ـ شعرت بالفرح.. وحزنت لأنه سوف ينفصل عن شجرة العائلة غصن مورق.

كنت أشغل نفسي بمراجعة الأوراق التي طلب مني تدقيقها قبل أن يعتمدها كشراء ومصروفات لمواصلة الإنتاج في الشركة التي نملك، لكن استمراره في الحديث وصمت أمي ونظرات من يجلس معنا من إخوتي الصغار كل ذلك جعلني ألتفت نحوه ثم اقتربت منه.

ـ وماذا.

ـ لم يتبق غير رأيك.

ـ ومن هو المتقدم؟

ـ رضاك من رضاي.

ـ وأمي؟

ـ لا تعرف.

ـ لماذا؟

ـ اليوم فقط فكرت في الأمر بجدّ.

ـ والآن؟

ـ الأمر بيدك ويد أخيك خالد.

اقتربت من أمي. وأخذت أتذكر أشياء غابت عن ذهني، لماذا أمي لا تشاركنا حياتنا.. لماذا دورها دائماً متأخر وكأنها من الأشياء التي في الإمكان الاستغناء عنها، ونحن نحس في الوقت نفسه بحاجتنا إليها.

شغلني هاجس والدتي. لماذا أمي بعيدة ولم ندرك كأسرة ذلك حتى الآن. أخذ والدي الملف واتجه إلى

غرفة النوم فشعرت برغبة في أن ألتحم بها وأسند رأسي إلى كتفها وأنا مترددة إذا بخالد يدخل ويقبل رأس أمي ثم يتمدد تاركاً رأسه على فخذها، يتابع معنا التمثيلية التي انتهت حلقتها فنهضت أمي كما هي عادتها إلى المطبخ.

ـ أمي ابقي في مكانك سوف أجهز أنا العشاء.

ـ أنت؟

قال خالد الذي لم يرفع رأسه عن حضنها:

ـ نعم

دفعت بسكينة رأس خالد مقربة إحدى المخدات. قاومها وأبقى رأسه في مكانه:

ـ ثم نقل لمباراة في الدوري الايطالي.

قالت أمي بصوتها الهامس:

ـ ومالي؟

ـ سوف تتفرجين معي.

شعرت بأن في داخلنا أمراً لا أدري كيف توصلنا إليه في هذه الساعة. تكوم إخوتي حول والدتي ودخلت أنا المطبخ لأعد العشاء، وصوت طلال مداح يصلني في إحدى أغنياته الجميلة ذات الإيقاع الراقص.

زل الطرب ياموجع الطار بالكف.

فأخذت أردد معه الكلمات في عالم لا ينتمي إلى الحاضر. وخرجت من المطبخ وأنا أغني، لأفاجأ بنظرات

الجميع ترمقني. كان الجميع ينصتون إلى غنائي، وأمي تتحدث على غير عادتها، وكفها تعبث بشعر أختي التوأم ورأس خالد ما زال في مكانه بينما الصغار منصتون إلى كلمات أمي التي لا أدري مصدرها وغاب مبتداها بسبب وجودي في المطبخ.

دقات قلبي يرتفع صداها مالئاً المكان وهالة من النور تطوقنا، كل شيء يشع.. ستائر النوافذ.. جهاز التلفزيون.. الجدران.. المخدات.. حتى فراش الغرفة أصبح بساطاً سحرياً امتطى الهواء ونحن فوقه.

تجلت صورة السائق وقد لطخ الدم وجهه وأصابع يديه. غادرت الغرفة ركضاً وإخوتي يتقافزون من حول والدتي. صرخ خالد بي منادياً ولحق بي هو وأمي، فتحت باب غرفة النوم فإذا بأبي يجلس خلف مكتبه مواصلاً عمله فابتسم بسمته الصغيرة المعتادة، ثم ترك كل شيء وجلس بقرب والدتي.

المذيع يعلن ابتداء المباراة. رائحة شيء يحترق. تركت مكاني متجهة إلى المطبخ. الجميع يصرخون في احتجاج جماعي: العشاء احترق.. العشاء احترق، وقد تلاشت المفترقات واختفت علامات الطريق.

المعاق

سألني لماذا دائماً تأتي متأخراً.

إنه يسحقني بكلماته التي أدرك أن مصدرها السكر. ومع ذلك فضلت الصمت وأنا أرشف قطرات بقيت في قعر كأسي.

الغثيان يرتفع إلى أعلى. ونبع الكلمات يتفاعل في داخلي، وأنا أنتظر انخراطه في البكاء كما هي عادته أثناء جلسة مثل هذه.

أخذ يتفحصني ثم قال:

ـ لا أدري كيف أنت قانع بحياتك؟

ـ ...

ـ غيّر من وضعك قبل أن يغتالك الزمن.

ـ ...

ـ الجميع يركضون وأنت تمشي كالسلحفاة.

ركزت نظراتي في كأسي الفارغة. وبقايا فقاعات ملتصقة بجدرانه، وقطع بلورية تهتز في قعره.

قلت:

ـ وهل أركض؟ لقد حاولت مرة..فكان الطريق شاقاً.

قال:

ـ شاقّ في نظر المتسول.

توجهت إلى الحمّام. أفرغت ما في جوفي ثم حدقت في المرآة. الاحتقان ظاهر على وجهي، وما زالت كأسي فارغة كما تركتها وحبات الثلج البلورية قد ذابت.

مددت كفي إلى إناء المكسّرات. مد كفه إلى القنينة وسكب بعض ما فيها في كأسي، تذكرت ماذا كنا منذ عشرة أعوام.

ونحن نتجول في الأسواق بحثاً عن امرأة نستمتع بها، كنا نجد أناساً يؤخذون عنوةً من متاجرهم.. وعربة محملة بذوي السحنة السوداء تقف ليسلب أصحابها المارة نقودهم، فبات تجوالنا رصداً لهذه التصرفات.

ووجدنا آخرين يشاركوننا ذلك. واختلطت الأهداف فانطلق عيار ناري استقر في جسد رفيقي الذي أصبح معه مشلولاً بعد علاج مرتبك في مستشفى حكومي، وإشعار بطردي من العمل للمصلحة العامة.

استطاع أن يحصل على معونة المعاقين. أما أنا فقد ركضت.. وركضت حتى جفت منابعي للعودة وواكبني الفشل.

شيء في داخله يشتعل فيدفعه للبكاء. منذ عرفته إذا

سطلنا يبكي، لا أدري مصدر البكاء إذ لم يبح منذ عرفته بسر حزنه، زحف إلى ركن قصي من الغرفة وتمدد ووجهه مواجه للجدار وأخذ شخيره يتقطع.

تركني أتجرع أفكاري؛ هناك من يتلصص من الخوف وأنا بدأت أتقلص.

الصلاحية

تلفّت حوله باحثاً عن موقف للسيارة أمام مبنى المؤسسة لمعرفته المسبقة بأن حارس البوابة لن يسمح له بالدخول.

فسيارته لا تحمل العلامة المميزة التي تحملها السيارات الجاثمة داخل الفناء، فالمواقف مرقمة ومحددة لا تستوعب سيارات الموظفين، فكان أحد ضحايا التمييز الوظيفي، توقف مندهشاً فالمكان مكتظ وهنا صرخ به البواب.

ـ أدخل لا تعطل حركة السير.

الأمر مفاجئ، ولج الفناء فرأى كل المواقف مرقمة فأي الأرقام يختار موقفاً لسيارته، أنقذه صوت يعرفه:

ـ خذ موقفي.. فأنا في إجازة طويلة منذ اليوم.

كان أحد موظفي المكتب الملاصق لمكتبه في الدور الرابع من البناية الشاهقة ذات المهام المتعددة.

صعد كما هي عادته السلّم بدلاً من استعمال المصعد. حاملاً معه كل هموم العالم، التي يبدأ في مناقشتها وطرح كل قضية منها مع كل درجة من درجات السلم.

ما إن استوى جالساً على الكرسي خلف مكتبه حتى طالع ورقة استدعاء مراسل المكتب لمراجعة قسم الملفات. وهذا تصرف ذكي من المراسل الذي لم يكن في الغرفة، فأدار رقم هاتف الملفات:

ـ أسعيد عندكم؟

ـ ...

ـ لماذا الاستدعاء؟

ـ ...

ـ لإنهاء معاملة طي ملفه الوظيفي.

ـ ...

ـ هل بلغ الستين... الرجل نشط ومجتهد.

ـ ...

ـ التمديد غير ممكن ..والتعاقد يحتاج لإجراء جديد.

أقفل الهاتف. إنها زمالة عشرين عاماً في مكتب واحد، لم يفكر في الزمن وفي الأيام التي سوف تنفذ شرطها القاسي.

تعثرت خطواته في بقاء المستخدم سعيد. عند كل محاولة تصفعه كلمة الصلاحيات وصراحتها ولم يستحدث أرقاماً على بند العقود أو الأجر اليومي، في محاولة من المركز الرئيس يرشد بها اليد العاملة بينما حجم العمل يتزايد.

أضف السعي إلى إيجاد موظفين برواتب أقل والبحث عن كوادر متخصصة وذات خبرة في الانتقال من خلال تأخر العلاوات وتأجيل الترفيع من مرتبة لأخرى.

كذلك قد أدى عدم تعيين موظفين جدد بدلاً من المتوفين والمحالين على التقاعد إلى تدني مستوى العمل وتأخر صرف المستحقات، وتلصص البعض عبر فجوات في الرقابة، لتطل الإشاعات ومظاهر الارتخاء وتبرز حالة تراكم النفايات في الممرات والأثاث الزائد والذي يحتاج إلى إصلاح، وكما خلت بعض الغرف والمكاتب من كائناتها الحية.

الحزن يتمدد وسعيد يكمل أوراق إنهاء الخدمة. وهو يفكر في إيجاد مصدر رزق جديد يساعده على مواجهة حاجات أسرته.

الأيام المتبقية من نهاية العام الأخير في حياة سعيد العملية تركض مستعجلة. وقد اكتمل إجراء طي القيد وقبل الموعد المحدد تغيّب عن العمل.

أقلقه الغياب فتمزق من الداخل. ضاقت به الغرفة وصمتها وتقطع النبض وتكومت الأوراق على المكتب وفي جنبات الغرفة تنتظر سعيد يوصلها، توهج من الداخل.. غادر المكتب فلم يجد أحداً من الزملاء في طريقه. الممرات مهجورة وأكياس القماش الأبيض مكومة أمام الغرف.

كانت سيارته الوحيدة الجاثمة في الفناء، تجاوز البوابة التي شرعها الحارس، التف يميناً أمامه وعلى الرصيف شبح رجل يعرفه، كان سعيد وبرفقته امرأة بجوار إشارة السير يمدان كفّيهما استجداء للصدقة.

الحافلة

انطلق باحثاً عن عود ثقاب كي يشعل طرف السيجارة. لم يكن يدخّن ومع ذلك قام بشراء علبة سجائر من كشك السندوتشات والمياه المبردة.

تلفت متفحصاً وجوه ركاب الحافلة التي تنقسم إلى قسمين الأول للذكور والخلفي للإناث. وإذا بيد تمتد من خلفه بقداحة مشتعلة، التفت إلى الخلف فلمحها من وراء الحاجز واقفة ربما بسبب الزحام.. وقد يكون بصره اخترق الحجب فلمحها مصادفة.

إنما وازع جديد في داخله دفعه إلى رفض إشعال السيجارة والاعتذار إلى صاحب القداحة بأن لوّح بكفه اليسرى مقدراً التصرف. لم يكن يتوقع أن هذه الحركة سوف تصل إلى القسم الآخر من العربة وفي باحة السوق المركزية. أخذ الجميع يترجلون منها وكان هو آخر المغادرين، تلفت حوله فلم يكن هناك أحد، أشعره رجل الأمن بالغثيان، الصور تتعاكس، لا شيء واضح المعالم .

رفع كفه متحسساً جبينه . كانت السيجارة بين أصابعه،

تأملها ملياً وبهدوء باعد بين الإصبعين اللتين تحاصرانها، سقطت فوق الرصيف فسحقها بمقدمة حذائه.

ما زال يشعر بالغثيان، رجل الشرطة أصبح اثنين.. ثلاثة.. أربعة، عاد إلى الحافلة وجلس في مقعده السابق؛ انطلق بها السائق ليدخلها المرأب لانتهاء نوبته في العمل.

العيد

دعني أشاركك الملل. صوت خافت ينبثق من داخلي وقد جلست وحيداً أقلب صحف اليوم، هناك من يبكي ودموعه كزبد البحر، وهنا غجرية تضحك وملء وجهها أثر مداعبة ماجنة من مشتر يحدق في شبق في عينيها وهو يساومها لشراء نقاب وشّته أناملها بالقلوب وغطاء مخدة خاطته بخيوط قطن ملونة تجهل مصدرها.

لا شيء يساويني في الفراغ. هكذا أنا منذ رجعت إلى عادتي القديمة وهي الجلوس في الدار وحيداً، تشعلني جملة وتبعثرني مفردة كأني قشة في مهب ريح.

منذ زمن بعيد لا أذكر تاريخه جرى اختطافي. بعد أن اعترضت مجموعة مموّهة الوجوه بصباغ عاكس عربتي. كل ما أحفظه أن الطريق كان طويلاً ومتعباً، حتى الإشارات والحديث الهامس بين الخاطفين لم يتمكن كلاهما من التصدي للصمت.

ـ أهلاً.

ـ لا أدري كيف أبدأ.

نبرات الصوت مألوفة. لقد كانت هي البحر الذي أحلم بالسباحة فيه، غير أن خوفي من الغرق وجهلي السباحة فرضا علي البقاء على الشاطئ وملامسته بنظري.

ـ ألا تدري وأنت إشكالنا؟

ـ إشكالكم؟

ـ هذا الطفل.. إشكالنا.

كان يرشف شيئاً ما من إناء فوق الطاولة التي يجلس إليها في ركن من البهو الذي أقف فيه. جانب من وجه الطفل وعدم ملامسة قدميه الأرض بسبب ارتفاع قوائم الكرسي يدلان على أنه في الخامسة.

ـ ما اسمه؟

ـ نحن نناديه..أسامة.

ـ وهل استجاب؟

ـ نعم.. أخذناه من امرأة تمارس البغاء والتسول.

ـ ماذا؟

ـ توقفت عربة على جانب طريق معتم.. لتمارس المرأة الجنس مع سائقها فتسلل الطفل إلى الحديقة المليئة بالألعاب الخشبية.

ـ إنه ابني.

ـ وهي..

قررت الاتجاه نحوه. لكن قدميّ لم تساعداني، الطفل

يواصل لعق ذلك الشيء المجهول، كما أن وقوفي لم يثر انتباهه، نداء صاخب يدفعني إلى التحرك، لم يغير من جلسته وانحناء رأسه أو تحريك يديه، بينما لسانه مازال ممدوداً منذ دخولي.

لقد كان تمثالاً من الشمع. عندما توصلت إلى هذه النتيجة دبت الحياة في مفاصلي، قدماي تقودانني إليه، المسافة ثابتة والصوت المألوف يستجوبني والخاطفون ينسلون فرادى بينما العرق يتصبب من جبيني.

ـ الطريق تطاول.

ـ لم يتطاول ولكنه شاق..

تلفت حولي، كل الأشياء منحنية: الأشجار، البنايات، العربات، الناس. الوحيد الواقف هو أنا فقط. توقفت نظراتي عند قدمي فإذا بي لا أملك قدمين وساقين وأن ما يحملني ذرات تشبه غبار الرمل المحيطة بأعمدة النور في شوارع الرياض، وأنا أتأمل ذلك عندما لا أجد ما يشغلني.

ـ ها وصلنا.

ـ لكن الطفل اختفى..

خيط ضوء يطل من جانب البهو عبر باب موارب. وصدى أحاديث وقهقهات، اقتربت من الباب فغمرني الضوء، كف صغيرة تتشبث بكفي وصوت أعرفه يهمس:

ـ أبي لقد تأخرت.

كان أسامة الذي فقدته منذ ثلاثة أعوام بسبب حادث دهس سيارة مسرعة قتله وهو عائد إلى الدار بعد شراء حلوى العيد من بقالة بالقرب من المنزل.

احتضنته وأنا أتفحص وجوه الحضور. كلهم مجهولون حتى صاحبة الصوت المألوف لا أعرفها. أفسح لي الجمع مكاناً بقرب طاولة الطعام، أسامة الواقف أخذ ينحني وامرأة تنبثق من سقف البهو ملابسها براقة وحلي تتوهج، تحفّز للهرب انفلت مغادراً رحت أناديه والجميع يتمسكون ببقائي في مقعدي.

أغلق الحضور المدخل مرحبين بالقادمة التي لما لمحتني رفعت كفها ملوحة. وصلت بعناء إلى الباب فلم أعد أنا، هنا آخر في داخلي حيث لمعت كلمات وحروف لم أستطع جمعها فقمعتها، عربتي أمامي والجمع خلفي، أدرت المحرك، انفجرت النار وراحت تطوقني، جسدي يحترق، الأشياء تختفي والطريق يمتد في صمت منتظراً من يعثر علي.

الطريق

نخلة لا يزيد طولها عن متر ونصف المتر ومئذنة مسجد صغير يرتفع فوقها هلال. وبالجوار مدرسة ابتدائية مكونة من ستة فصول في بناء متهالك يدل على فقر القرية التي لا تزيد مساكنها عن عشرين داراً.

يحيط بالقرية من الشرق والجنوب مزارع صغيرة ومن الغرب يمر طريق مزفّت إلى الجبال. طلبة المدرسة يتحركون بهدوء وسكينة لوجود غرباء في غرفة المدير.

كان يقف وحيداً بثوبه الأبيض القديم. في التاسعة من عمره، أشار مدير المدرسة الذي يقف مع زوار المدرسة الغرباء:

ـ هذا طالب يستفيد من عربة النقل.

غادر الغرباء المدرسة يرافق المدير سيارتهم. الصمت يخيم على الجميع، الطريق جبلي وعر، جرفته السيول لكن دواليب العربات مهدته من جراء مرورها المتواصل.

قال أحد الغرباء:

ـ ولماذا هذا الطريق؟

ـ لأن الطريق الأول قطع.

لم يستفسر الغرباء عن سبب قطع الطريق السابق. حتى وصل الجميع إلى مسكن جزء من طلبة المدرسة، البيوت القديمة من الحجر والجديدة المتهالكة من الطوب والخشب وصفائح الزنك المتناثرة على امتداد واد تكسوه الأشجار الشوكية.

ـ هل يربي السكان الأغنام؟

ـ هي رحلة أبدية للبحث عن المطر.

ـ كم المسافة بين هذه المساكن والمدرسة؟

ـ تقريباً عشرة كيلومترات.

شعر ابن التاسعة برجوعهم فخرج من الفصل.

ـ هل وجدتم أحمد؟

كان أحمد رفيق طريقه إلى المدرسة. عبر الطريق الطويل بعد قيام أحد الأمراء بتسوير الأرض المثمرة بإيعاز من مندوبه المجهول، عزلت المدرسة عن منازل القرية المزروعة بين الجبال.

بعضهم يدعي أن إحدى ساكنات هذه المنازل تعرفت على شاب شاهدها يوماً في سوق المدينة وعرف مندوب الأمير عندما تكرر وجود عربة بين المنازل هذه الصداقة، فأغرى السكان بطيب أخلاقه وسماحه لهم بالاستقاء من البئر التي حفرها في القرية بعد أن سور جزءاً لمعداته التي

شارك بها في تمهيد الطريق المزفّت حتى لا يعترض أحدهم على استيلائه على أرضهم.

ونمت غريزة الاستيلاء بعد فشله في اكتشاف سر المرأة التي غادرت الوادي مع أسرتها. فكان أن زين للأمير الذي يخدم عنده بتمديد السور والتوسع مما قسم القرية وجعل الوصول إلى المدرسة شاقاً.

عادت المرأة إلى الوادي مع ابنها أحمد الذي اختفى ذات صباح وهو في طريقه إلى المدرسة، مدّ أحد الغرباء كفه مطبطباً على خد الصبي.

ـ ما اسمك ياولدي.

ـ حمزة.

ـ ومن.. أحمد؟

ـ ابن مزنه.

دخل الغريب غرفة الإدارة . وقف أمام مكتب مدير المدرسة الذي انهمك بتوقيع بيانات نقل الطلاب ومراجعتها.

ـ أين أحمد؟

رفع مدير المدرسة رأسه. تأمل الفضاء الذي يتجاوز الباب المفتوح وإطار النافذة، وحدق في الغريب، ثم حنى رأسه منكباً على عمله.

اقترب الغريب متفحصاً ما يكتب المدير. خطوط

متعرجة ومربّعات ودائرة من أسلاك شائكة تحاول طمس وجه طفل طافح بِشْراً، انبثق من بين الخطوط والأسلاك ليقف إلى جوار رفيق الدرب المنتظر وحيداً في فناء المدرسة، وسارا مجتازين السور الشائك إلى الجانب الآخر من القرية عبر الطريق القديم.

مــي

ألم الغربة هذه المرة جاء قاسياً برغم اعتياد السفر والهجرة إذ حل الاختناق، إنما هذه المرة شيء تجاوز المألوف.

تعتمل في داخله نوازع شتى. هل كان سفره قبل الاجتياح من إيجابيات الصدف، لكن التشرد القسري هو ما يؤلم.

لقد أكد حجز مقعد الطائرة على رحلة الرابع من آب/أغسطس. هذه الوثائق التي يحملها لم تعد صالحة، هكذا قالت مي التي قالت إنها تعرفه وهي ترحب بتقربه مادّاً يده إليها فتداخلت الصور.

تذكر الطريق الذي يؤدي إلى المطار. ومبنى مقر العمل ضمن أفراد حامية المطار، ترى ماذا تبقى في الموقع وهل رحل الباقون؟

مي هي الوحيدة بعد رحيل الجميع. كل المنافذ مغلقة بعد أن قالت مي إنه يحمل وثائق ملغاة.

اتجه إلى مبنى السفارة . الحزن يطوق الجميع، فقام بتعبئة استمارة إثبات وجود، حتى يتمكن من الحصول على المعونة.

سفارة الدولة المحتلة على بعد خطوات. دخلها، قدم جوازه لموظف الاستقبال، أعاد الموظف الجواز له وطلب منه الرحيل.

ـ ألم أقل تحمل وثائق انتهت مدتها؟

ـ وكيف أستعيد هويتي؟

ـ عندما تقر الأمم المتحدة الضم.

ـ وإذ. . .

ـ سوف تبقى.

ـ وأنت؟

ـ مرشدتك السياحية.

قالت ذلك ثم غادرت الشقة. لقد اعتاد مغادرتها إذا احتدم النقاش ليتحدث مع نفسه، فاسحة في المجال لأن يتواصل حواره مع ذاته.

الأضواء تملأ القاهرة وصخب الحراك الذي اندغم فيه الإنسان.. بالآلة.. بالنهر.. الشوارع، صالات السينما، الملاهي، أفكاره تمتد أمامه معلنة ما يعتمل في داخله، الوطن..الأهل ..الأرض والناس، الصور التي يشاهدها في التلفزيون تجعله يهرب إلى حضن مي وكأس تساعده على الضياع.

شد أحدهم كتفه من الخلف.

ـ عماد.. عماد. .

لم يستوعب المفاجأة. كان أحدهم يعرف اسمه فناداه

في هذا الزحام، انهمرت دموعه التفت باحثاً عن صاحب الصوت، جاشت عواطفه محلّقاً في فضاء من النور وهو يحتضن رفيق العمل، الأشياء تتشكل، عليه الآن أن يواجه مي بأن له اسماً وأن وثائقه حقيقية.

ـ متى وصلت؟

ـ كنت في لندن.. البارحة وصلت.

قاطعه متهجياً:

ـ الوطن.. الناس.

كان استفسار من قبل الاثنين ثم دخلا مطعماً، بعد حديث طويل خرجا متجهين إلى مسكن رفيقه فوجد آخرين يعرفهم، كلهم هنا دقق في الوجوه إنهم هم.. مازن.. بدر.. فوزان وهذه مي، هذه مي ترقص، الدخان يملأ الغرفة.

أحس بالاختناق. الزحام يفجر رأسه إذ تدخل مي ثانية تأخذها نشوة سيجارة الحشيش فترقص، ومي ثالثة ترفض سيجارة الحشيش فتتجرع قطرات من قنينة المشروب المنتصبة قرب التلفزيون وتداعت بجواره.

الأخبار تأتي كل ساعة. وقرارات مجلس الأمن تتوالى، انتقل مع رفاقه إلى الجبهة، كان أول من دخل حاملاً العلم ملوحاً بجوازه فسقطت منه صورة مي وهي تقف في شرفة شقته، لكنه سحقها بقدمه وهو يخالط جمع المستقبلين.

الرجل الذي مات وهو ينتظر

قالت الراوية:

لم تغير حنان ما اعتادته قبل رحيل سيدها إسماعيل مع الجيش لمطاردة لصوص الثغور. فبعد غروب الشمس واجتياح جحافل الظلام اتجهت إلى الحمام واستلقت في بركة الماء بملابسها مستسلمة لأنامل جاريتين جرّدتاها مما عليها من ثياب وراحتا تدعكان جسمها بالماء المعطر. خرجت منتشية إلى غرفتها في أقصى القصر حيث تطل نوافذها على حديقة غناء. وقفت قليلاً أمام النافذة ثم حلت إزارها واندست تحت الغطاء.

قال الراوي:

كان إسماعيل في تلك اللحظة يتلذذ باستعراض مجموعة من الأسرى، بعد أن انتصر الجيش على عدد من الجماعات المعارضة التي رأت أن أفضل طريق تعبر فيه عن موقفها هو مهاجمة أطراف الدولة ومناوشة ولاة الحاكم، للكف عن اغتصاب قوت الشعب لإرساله مكوساً

إلى العاصمة بعد أن يقتطع الولاة وممثلوهم نصيبهم الذي يزيد كلما تم إرهاق المواطنين بالضرائب والإتاوات.

قال راوٍ آخر:

بين الأسرى الذين استعرضهم إسماعيل فتى في العشرين من عمره بهي الطلعة حسن المظهر يطل من عينيه بريق القيادة.

قال له إسماعيل:

ـ ما اسمك يا فتى..!

ـ إبراهيم الناجد.

ـ أأنت من هذه الناحية..؟

ـ هذا ما أعرفه.

ـ وهل لك بين الأسرى قريب؟

ـ كلهم..

ـ أب..أخ.. ابن عم..!

ـ كلهم..

ـ لا تكن يا ولدي عنيداً.

ـ ومتى كان الحق عنيداً.

أشار إسماعيل إلى جنده بأخذ الأسرى إلى خيمتهم. وتمدد في فراشه وعلا شخيره.

قالت الراوية:

استعصى النوم على حنان فغادرت فراشها ووقفت أمام النافذة تتأمل الفضاء المنساب أمامها راصدة النجوم والضياء المنتثر في الأفق، لم تشعر بالإرهاق من جراء وقفتها الطويلة التي استمرت حتى انبلاج الفجر الذي معه رجعت إلى فراشها ليداعب الوسن مقلتيها فتغفل عما حولها.

قال الراوي:

انتهت مهمة إسماعيل في تأديب العصاة وأرسل البريد إلى العاصمة لإخبار الوالي بما تم وأرسل مع البريد قادة الأسرى والغنائم مع مفرزه من الجند.. منتظراً أمر الوالي بالعودة إلى العاصمة. وفي الطريق تعرضت قافلة البريد لهجوم مباغت تم فيه قتل الجند وتحرير الأسرى واستعادة الغنائم. وقام المهاجمون بدفن معالم الموقعة في رمال الصحراء. وقرر إبراهيم الناجد أن يدبر مؤامرة فتشاور مع رفاقه واختار مجموعة انتخب منها ثلاثة كمعاونين له. واعتبر سبعة أسرى وأبقى نصف الغنائم بعد أن أمر باقي الأسرى بالعودة إلى مواقعهم دون أن يشعر بهم أحد حتى يتصل بهم. واصل إبراهيم الطريق إلى العاصمة ودخلها منتصراً مبتهجاً بين دقات الطبول ورنين النحاس.

قالت الراوية:

وفي الطريق إلى قصر الوالي كان على قافلة البريد أن تمر بدار القائد اسماعيل.ومع الضجيج أطلت حنان من شرفتها للتفرج على الموكب الذي يحمل أخبار انتصار زوجها. وتأملت قائد القافلة الذي رفع رأسه إليها وافتر ثغره عن ابتسامة صغيرة أخذت طريقها إلى قلبها فشعرت برجفة غريبة تسري في عروقها، وتوقفت القافلة وترجل إبراهيم ثم اتجه إلى باب القصر. ولم تتحرك من مكانها. وسلم لفافة لبواب القصر ثم عاد إلى مكانه في مقدمة القافلة.

قال راوٍ ثالث:

استقبل الوالي آمر البريد ولم يراوده أي شك، مع استغرابه حجم الغنائم وعدد الأسرى بينما رجال القافلة أربعة، ثلاثة جنود وقائدهم الشاب الأمرد. وزال الشك وإبراهيم يواصل الحديث عن انتصارات جيش الدولة المظفر فأمر باستضافته ومرافقيه في أحد قصوره وأرسل الأسرى إلى ثكنة عسكرية حتى ينظر في أمرهم.

قال راوٍ ثالث:

أخذ إبراهيم ومرافقوه يتجولون في المدينة منقبين راصدين نهاراً، وفي الليل يعودون إلى القصر متجولين في الغرف الفارهة متمتعين بالفراش الناعم، ومعاشرة بعض

الجواري بعد أن اكتُشف ممرّ سري عبر حديقة القصر الكبيرة إلى قصر إحدى زوجات الوالي، حيث استطاع إبراهيم الوصول إلى مخدعها ذات ليلة فاندس في فراشها قبل أن تأوي إليه وقد قاده حدسه بأن نظرتها التي تصوبها نحوه وهي تمر به مع جواريها في حديقة القصر دعوة لا يستطيع رفضها ومخطط يريد تنفيذه قبل العودة من حيث أتى. ارتبكت من المفاجأة فأخذت نظراتها تستنجد بجاريتها التي تساعدها في خلع ملابسها، ولكن الجارية غادرت الغرفة وضحكتها تجلجل في ممرات القصر.

قال راوٍ ثالث:

تعرف إبراهيم على مجموعة من أبناء قريته ومعارفهم. أخذ يحدثهم عن أوضاع قريته التي تتعرض إلى سلب مزدوج من أمراء الحاكم ومن قطاع الطرق الذين يقدمون من الدول المجاورة.

قالت الراوية:

استقبلت حنان اللفافة التي توهمت أنها من زوجها باستغراب حيث لم يعتد القيام بمثل ذلك. وأرسلت في طلب آمر البريد للاستفسار عن صحة زوجها ودواعي إرسال الهدية. لم يكن إبراهيم مستعداً للإجابة عن الاستفسار. ولكن وجد المخرج في قوله بأن مهمته سوف تطول وأخذ يشرح لها كيف تم الانتصار ودحر الأعداء

مما طمأن قلقها فرجته أن يبلغها بكل جديد وأن لا يقطع القصر من زياراته حتى تحمله بعض الرسائل عندما يأذن له الوالي بالعودة.

قالت الراوية:

كانت حنان تقف خلف ستائر نافذتها عصر ذات يوم على غير العادة ولمحت أحدهم يتسلل إلى حديقة القصر. ثم شاهدت جارية من جواري القصر تتجه إلى المكان الذي اختفى فيه الرجل وطال مكوثها في مكانها، قاربت الشمس المغيب وإذا بالجارية تعود وهي تتلفت حذر العيون.

قال راوٍ ثالث:

خرج إبراهيم من غرفة الأميرة مع أذان الفجر الأول، متخذاً طريقه إلى القصر الذي يقيم فيه مع معاونيه الثلاثة الذين أزعجهم اختفاؤه دون علمهم فلم يخلدوا للنوم مع رفضهم لكل مغريات من يتسلل إلى غرفهم من الجواري. ما إن شاهد الثلاثة إبراهيم حتى أمسكوا برأسه وقد خنقتهم العبرة فأخذ يهدئ روعهم بأنه كان ينفذ خطوة من خطوات المخطط الذي رسمه معهم. واعداً بأنه سوف يحترم خوفهم عليه. وفي هذه الأثناء دخلت عليهم جارية منقبة، ما أن لمحها أحد الرجال حتى ارتبك ورمقه إبراهيم مبتسماً وهو ينسحب إلى غرفته.

قال راوٍ ثالث:

توسم إبراهيم في اثنين من الرجال اللذين تعرف عليهما في أسواق المدينة، أولهما كتبي والثاني محدث في المسجد الكبير، توسم فيهما التعاطف مع قضيته وإن لم يتجاوز في نظرهم آمر بريد الحاكم. ووجد في الكتبي خطوة لتسجيل معاناة شعبه رغم غنى الأرض التي يقيمون عليها ويستصلحونها. فأخذ كل يوم يروي له قصة جديدة.

قال الراوي:

استبطأ إسماعيل وصول البريد.

قالت الراوية:

طلبت حنان من إحدى جواريها البقاء في غرفتها لتؤنس وحدتها. فأخذت تقص عليها بعض الحكايات المسلية. حتى وصلت إلى حكاية ابن الحاكم الذي يتلذذ بجلد النساء. ومراقبتهن وهن يتصارعن مع الحضور من خلصائه في حفلات خاصة حضرت بعضها.

ـ ومتى تقام؟

ـ دون وقت محدد.. أتريد سيدتي الحضور..؟

وفي ليلة غاب قمرها غادرت حنان القصر متنكرة مع جاريتها إلى قصر ابن الحاكم الذي بهره جمالها فدعاها إلى الجلوس بقربه وتناثر المدعوون وعلا لغطهم. بينما بعض المغنين ينشدون والجواري يرقصن حتى ساعة

متأخرة من الليل. أشار لفرقة الغناء بالتوقف والرحيل وللجواري بالجلوس، ودخلت القاعة أربع فتيات يرتدين سراويل طويلة وقمصاناً شفافة التصقت بصدورهن، درن دورة كاملة ثم انحنين في اتجاه الأمير واتخذت كل فتاتين مكاناً ثم تقدمت واحدة من كل اتجاه وبدأ العراك.

ومع انبلاج الصباح كانت حنان تخرج من غرفة الأمير ووجدت جاريتها تنتظرها أمام باب القصر.

قال راوٍ ثالث:

علم إبراهيم بهواية ابن الحاكم فأخذ يتقرب إلى حُجّابه لحضور إحدى الحفلات حتى تيسر له مقابلته والجلوس إليه.

قال راوٍ ثالث:

باح إبراهيم للأميرة ذات ليلة وهو في مخدعها بأنه تأخر ويخشى غضب القائد في الشمال عليه والحاكم لم يستدعه حتى يسمح له بالسفر. فطلبت منه التريث.

قال راوٍ ثالث:

حضر إبراهيم حفل ابن الحاكم ووجد حنان تجلس في صدر المجلس.

قالت الراوية:

استأذن إبراهيم بالدخول على حنان التي أذنت له لمعرفة حاجته.

ـ إني أجهز ركائبي للسفر.

ـ ومتى يكون ذلك..؟

ـ خلال أيام فإذا كانت لديك رسالة لزوجك القائد..

ـ الأمر يحتاج إلى وقت.

ولاحظ عدم احتفائها به فأخذ يقص عليها بعض حكايات زوجها وبطولاته متأملاً أثر ذلك عليها. ثم حول الحديث إلى الشعر وأحاديث السمار عن العشق والعشاق فشعر بإقبالها نحوه واستزادتها.

ـ من أين كل هذه الحكايا..؟

ـ من الاطلاع والدرس.

ـ وهل هذه القصص مدونة في الكتب..؟

ـ معظمها مدون والقليل في صدور أصحابها.

ـ آمل أن تطول إقامتك معنا للاستزادة.

ـ وهل كسبت رضا مولاتي؟

ـ أجل وتستطيع الحضور وقت ما تشاء.

ـ ولماذا لا يكون لسيدتي مجلس خاص؟

ـ وهل ترى ذلك؟

وخرج وقد اختمرت في ذهنه خطة يستطيع بها أن

ينزع الوالي من راحته واتكاله على تقارير أمرائه التي تدفعه إلى إرسال جيشه لتأديب العصاة من دون مناقشة.

قال الراوي:
اتخذ إسماعيل من بين الأسرى خليلات وعبيداً يقومون على أمره وأمر قادة جيشه بعد أن بنى قصراً أثثه بفاخر الرياش.

قال راوٍ ثالث:
في ليلة سمر مع ابن الحاكم همس إبراهيم بأنه سوف يقيم بعد ثلاثة أيام احتفالاً خاصاً لمناسبة سفره ويتمنى أن يحضره الأمير.

قالت الراوية:
ابتهجت حنان بالدعوة الخاصة التي همس بها إبراهيم في غفلة من الآخرين ودعته إلى غرفتها.

قال راوٍ ثالث:
استطاع إبراهيم إقناع الأميرة بزيارته في مقر إقامته حيث يعد احتفالاً خاصاً سوف يبهجها وينزع الكآبة من أعماقها.

قال حاجب الحاكم:
دخل ذات مساء ابن الوالي على والده وطلب أن

يحقق له أمنيته. فتردد الحاكم لمعرفته بنوازع ابنه ولكن أجاب في النهاية، فقال الأمير الشاب إنه يتمنى على والده تعيين إبراهيم قائداً للجيش.

قالت جارية من جواري الأميرة:
سمعت مولاتي تسر للحاكم بأنها علمت برغبة البعض في تعيين إبراهيم في القصر وزيراً أول.

قالت حنان:
وجدت في إبراهيم رغم تمتعي بحفلات ابن الحاكم ما يشبع غرائزي التي تثيرها أنامل الجواري . بينما إسماعيل بعيداً يتابع العصاة ويحمي الحدود.

قال راوٍ ثالث:
أخذ إبراهيم يسر لرفاقه بحنينه إلى أرضه وأهله. فأخذ الجميع يعاتبونه على هذا الحنين الذي لم يكن وراءه سوى الشقاء. شعر بالخوف من هذا الشعور فتوقف عن الحديث وصمم على المضي قدماً في خطته، فقام بنشر مسحوق يزرع القروح فوق البشرة التي تلامسه في جدران وأثاث الصالة التي قرر إقامة الحفلة بها وخلط المشروب بمحلول قاتل لا يتفاعل إلا بعد مضي يوم كامل دون أثر في داخل

من يشرب منه، حصل عليه من عطار زاره متنكراً بعد أن ضاعف له الأجرة.

قال الراوي:
مات إسماعيل وهو ينتظر..

قال راوٍ آخر:
أخذ إبراهيم طريقه إلى قصر الحاكم وأخبره الحاجب بأن الحاكم لم يخرج من دار الحريم وعليه العودة في المساء.

قال راوٍ آخر:
أخذ الضيوف بعد غروب الشمس يتوافدون.

قال راوٍ آخر:
قبل انبلاج الفجر خرج إبراهيم ومرافقوه من القصر.

قالت الراوية:
فقدت حنان توازنها فانطلقت إلى حديقة القصر فأخذ يلاحقها الحضور.

قالت جارية من جواري الأميرة:

وجدت عند الأميرة رغبة في زيارة الأكواخ الملاصقة لسور دار الولاية وقصور الحاكم فاتجهت إليها وقدتها إلى كوخ رجل كثيراً ما كان يزورني في القصر.

قال حاجب الحاكم:

أمرني الوالي بإصدار أمر تعيين إبراهيم قائداً للجيش ووزيراً أول .

قال الكتبي:

ورد في كتاب (إتحاف الورى في أخبار ما ضاع من القرى) في الشهر الأول من عام أحد عشر وأربعمائة وألف قبل الهجرة النبوية . حل وباء حصد ابن الحاكم وإحدى الأميرات ومجموعة من الجواري ومجموعة من قادة الجيش وبعض المغنين والمغنيات . بالإضافة إلى مجموعة من سكان الأكواخ الملاصقة لسور قصر الحاكم كما لم يسلم بعض أفراد القصور الأخرى.

تقاطع في خانة الآحاد

مع دخولي توقف خرير الماء، فصل المسؤول عن الأمن في الفندق التيار الكهربائي عن نافورة المياه المزروعة في المدخل. وسيطر الهدوء لولا وقع حذاء يمر متجهاً إلى باب المصعد أو مخرج الفندق، الساعة تشير إلى العاشرة من ليلة ماطرة طويلة.

اتجهت إلى موظف الاستقبال حيث يقبع متشاغلاً بمراقبة لوحة المفاتيح في اهتمام مبالغ فيه. تجاهل وقوفي، وأخذت أتابع حركات يديه وهو يبحث عن شيء حاولت تفسيره فلم أتمكن.

كان حضوري إلى الفندق بدعوة من عثمان الذي يشارك في اجتماع نخبة من رجال الأعمال العرب بفريق من أوروبا لمناقشة التبادل التجاري وتوثيق استراتيجية جديدة للعمل بعد حرب الخليج العربي حيث أصبحت المعادلة ذات أرقام مختلفة وشعر معها بعض أثرياء الخليج بدورهم في البنية السياسية.

كان هدف الدعوة بحسب برنامج اللقاء نشر الكتب

وبناء الثقافة المعرفية، كما استوعب من مجريات الحوار، وبالتالي وجدها كصديق فرصة لتبني تحقيق هدفي بإيجاد تعاون للنشر المشترك، وذلك ما دمت في القاهرة لحضور معرض الكتاب وقضاء إجازة لمدة خمسة أيام هرباً من العمل، وأخذت الإنارة في مدخل الفندق تخفت بعض الشيء.

ـ ياسيد الأستاذ عثمان إبراهيم.

ـ هل أنت سليمان؟.. سليمان.

ـ أجل لقد تأخرت بعض الشيء عن الموعد.

ـ لقد سأل عن وصولك.. ويعتذر..

ـ وماذا؟

ـ عليك الانتظار.

ـ الانتظار ممل.

الإرهاق يطوقني من كل ناحية وقد سددت فاتورة الفندق الذي كنت أقيم فيه على أمل السفر حتى أرتاح قليلاً. وأكدت على الموظف كتابة رسالة إلى صديقي.

ـ أنت أديب؟

هززت رأسي نافياً، فأخرج من أحد الأدراج ثلاثة من كتبي ولوح بها أمام ناظري.

ـ ألست.. أنت؟

وكانت الإجابة بأنني هو. هنا تغيرت ملامحه وقدم

مفاتيح غرفة حجزها عثمان باسمي وتلفت حوله باحثاً عمن يوصلني فلم أهتم. اتجهت إلى المصعد وأخذت أتجول في الممرات باحثاً عن الغرفة (216) وما إن أغلقت الباب خلفي حتى كان جرس الهاتف يصرخ بي مستقبلاً.

ـ من..

ـ غرفة 199.

ـ نعم.

وأغلقت الهاتف ولما أترعت كأساً من مشروب تحفل به ثلاجة الغرفة خرجت باحثاً عن الغرفة 199 والصمت يثير قلقي.. فتح الباب بهدوء عن وجه امرأة مما زاد ارتباكي.

ـ أنا سليمان..

ـ من؟

ـ هذه غرفة 199.

ابتسمت وهي تلاحظ ارتباكي.

ـ نعم.. غرفة من تريد.

ـ 199.

آثار النوم على وجهها.. وتطلعت في الرقم المثبت على الباب كان 198. جاء الاعتذار في هذه اللحظة مريباً.. وأشارت إلى الباب المقابل حيث يتراقص الرقم المطلوب.

ـ أرجو المعذرة لقد وصلت الآن.

ـ للسهر؟

ـ أجل وقضاء بعض الأعمال.

ـ آسف.. غرفتي رقم 216.

اتجهت إلى الغرفة المطلوبة وقرعت الباب فلم يُفتح فأخذت الطريق إلى غرفتي وقد زاد تشتت ذهني. تمددت في الفراش. . لماذا تأخرت؟ اللقاء كان في الثامنة. أين عثمان؟ في هذه اللحظة رن جرس الهاتف.

ـ نعم!

ـ لم تجد صاحب الغرفة؟

ـ لا.

ـ لقد حضر.

ـ شكراً.

ـ إنه يتحرك.

ـ آسف.

ـ هل ترغب في مقابلته؟

ترددت في الإجابة لشعوري بالدفء في الفراش.

ـ الأمر غير ملح.

كانت المتحدثة صاحبة الغرفة الخطأ. وشعرت بالذنب، لم تعد إلى النوم بعد إزعاجي وقد يكون التصرف أخذ بالثأر. أخذت أقلب الاحتمالات بهدوء فاتصلت

بموظف خدمات الغرف طالباً الشاي ودخلت الحمّام أنعش جسدي بماء المغطس فانتزعني منه جرس الباب متوهماً وصول العشاء فإذا هي.

ـ ممكن؟

ولما توسطت الغرفة:

ـ لقد طار النوم!

كل شيء فيها يستفزني، شعرها الأشعث، وجهها الخالي من المساحيق، بنطالها الذي لم تقم بإحكام أزراره،حزام البنطال المتهدل، صدرها المتكور تحت القميص الشفاف.

ـ هل أنت من الخليج؟

كان السؤال غريباً فبادرتها رغم إدراكي بأنها مصرية من نطقها لبعض الحروف.

ـ وأنت؟

ـ مديرة أعمال من يسكن الغرفة 199.

وطرق الباب مجدداً.. كان نادل المطعم فحرك فرحها بالعشاء أوصالي وشعرت بالود نحوها. كان التلفزيون مغلقاً فأدارته على فيلم أجنبي مثير.. تمددت في الفراش وفسحت لي مكاناً فتمددت بقربها.. المشاهد المثيرة في التلفزيون أشعلت النار في الفراش فرحت أمصّ شفتيها متوقداً رغبة تجاوبت هي معها لأتنبه من الرقاد على رنين جرس الهاتف.

كان عثمان ينتظرني في مطعم الفندق، تلفت حولي أبحث عنها فلم أجدها.

وجدت عثمان بين مجموعة من الرجال والنساء. قدمني لهم وأخذت أتحدث عن مشروعي.

ـ إذاً أنت على استعداد للمشاركة؟

جاء السؤال مفاجئاً رغم استعدادي . وأجاب عثمان نيابة عني وتحدث بشكل أفضل عن الخطوات والمجالات التي أستطيع المساهمة فيها.

وخرجنا من الاجتماع باتفاق أولي.. واعتذرت عن المشاركة في الفقرة التالية من برنامج الاجتماع التي هي زيارة لمركز صناعي شريك في رعاية اللقاء، فأكد عثمان علي بضرورة عدم مغادرة الفندق حتى نلتقي في المساء.

جلست إلى طاولة منزوية في مقهى الفندق متأملاً الفضاء عبر زجاج شرفة المقهى.

ـ هل تسمح بالجلوس؟

ـ نعم.

كل شيء فيها قد تغير. والحيرة التي أصابتني وأنا أتفحصها البارحة تجاوزتني، كانت شفافة جميلة تسلب اللب.

ـ لماذا لم تشاركيهم في الزيارة؟

ـ خارج نطاق عملي..

ـ متى غادرت الغرفة؟

ـ باكراً.. حيث اعتدت ذلك.

استمر الحديث طويلاً ثم استأذنت في الصعود إلى غرفتها.

ـ سوف أنتظرك.

في الغرفة حاولت أن أعيد ترتيب برنامجي.. سكبت كأساً من قارورة المشروب الساكنة في ثلاجة الغرفة.. اتصلت حتى أذكرها بانتظاري وقد شعرت بحاجتي إليها، ممرات الفندق خالية، وقفت أمام الباب ثم تجاوزته مواصلاً طريقي لأجدها تقف في باب غرفة أخرى معها امرأة تبادلها الحديث. لمحت ابتسامة صغيرة على محياها فعدت إلى الغرفة.

جاءت برفقة زوجة أحد أفراد وفد أوروبي شقراء جف عودها. كانت زجاجة المشروب على الطاولة مع كأسي المترعة، تناولت الكأس وتجرعته ثم سكبت إلى منتصفه وقدمته لمرافقتها التي احتضنتها وقبلتها على شفتيها وأرسلت لي قبلة عبر الهواء. أثر الشراب يشعل دفين الاثنتين اللتين شعرت بأن هناك علاقة حميمة بينهما. فقد استسلمت زوجة عضو الوفد للمداعبة الجنسية وتمددتا في الفراش وكان علي مشاركتهما في اللعب.

ورنّ الهاتف. كان عثمان يحيطني بعودته ويدعوني

للمشاركة في العشاء. أخذت أجمع الأشياء المتناثرة فوجدت أن إحداهما نسيت حقيبة يدها فلم أهتم.

قلت لعثمان وأنا أتفرس في وجوه الجميع:

ـ إجازتي انتهت.

ابتسم ثم تسمّرت عيناه على مدخل المطعم حيث أقبلت مجموعة من السيدات أخذن طريقهن إلى طاولة أخرى في المطعم . كانت إحداهن تختلس النظر بين لحظة وأخرى نحونا. تركني عثمان واتجه إلى طاولة الحلويات والفاكهة وهنا قامت المرأة التي كانت ترمقنا واتجهت إلى طاولة الحلويات ولم أدر ماذا حدث بعد ذلك حيث أقبلت السكرتيرة وزوجة عضو الوفد الذي عرفت أنه الرئيس ولم يكن عضواً عادياً.

وجلستا بجواري.

عاد عثمان وعندما وجد أن المقعد قد احتل، اتجه إلى طاولة أخرى فغادرت مكاني واقتربت منه.

ـ وماذا بعد؟

ـ ألا ترى أننا نستطيع الاستفادة؟

ـ وعملي؟

ـ يومان.. فقط..

ـ وهل؟

ـ لقد وعدتك.

نهض عندما لاحظ الحضور يغادر المطعم فاتجهت إلى المقهى وجاء صوتها خافتاً:

ـ لقد نسيت حقيبتي.

وغادر الجميع المكان في رحلة سياحية إلى آثار مصر وأسواق القاهرة.

أخذت أقلب محتويات الحقيبة لا شيء فيها يثير الاهتمام.. أدوات نسائية، ماكياج ومناديل ورقية معطرة، وبعض القطع النقدية، أعدت كل شيء إلى مكانه، وتمددت في الفراش . وإذا بطنين خافت يثير اهتمامي، قمت أبحث عن مصدره في الغرفة حتى وصلت إلى الحقيبة فأعدت فتحها، الطنين يصدر من إحدى علب الماكياج فقمت بفتحها كانت جهاز إشعار، أعدت كل شيء ثم قررت إخفاء الجهاز.

ولا أدري كم من الوقت مضى حيث نبهني طرق سريع ومفاجئ على باب الغرفة، ولم أهتم بإغلاق الروب حول جسدي العاري. كانت هي:

ـ أريد الحقيبة.

افسحت لها الطريق.. أخذت حقيبتها ثم خرجت ولم يطل تفكيري حتى كان الباب يقرع:

ـ أين الجهاز؟

ـ أي جهاز؟

ـ سرقتني!

ـ ولمَ لم تكن هي؟

ـ إنه لها.

ـ ولمَ أنت؟

ـ زوجة رئيس الوفد.

شعرت برغبة كاسحة في اجتياحها وهي خائفة ترتعد من الرعب، كل عضو منها يستسلم.

ـ أرجوك.. سوف تقتلني.

أخرجت الجهاز من درج الثلاجة، أعادته إلى مكانه في الحقيبة ثم ارتدت ملابسها ووقفت أمام المرآة تصفّف شعرها وخرجت منتشية.

غادرة الغرفة ودخلت المطعم. وجدت الفتاة التي تحدث عثمان معها تجلس وحيدة.

ـ هل تسمحين؟

وجلست أمام صمتها وعدم تفوهها بكلمة.

ـ أين زميلاتك؟

ـ أنتظرهن؟

ـ إلى أين؟

ـ سوف نقوم بجولة.. قبل العودة.

ـ ما رأيك أن أدعوك إلى فنجان قهوة.

لم تجب أيضاً فطلبت اثنين من القهوة، أخذت أتأملها وهي تعبث بشعرها متوترة.

ـ عثمان.. سوف يتأخر..

ـ وما أدراك؟

ـ إنه أخي.

ـ أخوك؟

لم أواصل الكذب. شعرت بأنني أقترف ذنباً حياله. غادرت مقعدي وأنا أوقّع فاتورة المقهى، وما إن ولجت الممر حيث غرفتي حتى لمحت المرأة السحاقية تقف في بابي فأسرعت اليها.

أخذتها إلى الداخل وطلبت من المطعم وجبة طعام مع مشروب. كانت مرتبكة لا تدري ماذا تفعل.

ـ لا تشعريها بالفقد.

وأنا أحرك كفي على ظهرها زارعاً الهدوء:

ـ لقد سيطرت علي من أول لقاء.

ـ كيف؟

ـ عرفت شذوذي وتمكنت من كسب رضاي.

ـ كيف؟

ـ لقد عزلت نفسي عن الوفد.. حتى أتمتع برحلتي.

ـ وبعد..

ـ اقتربت مني تكتشف صدق ما لديها من معلومات عني.

ـ يعني..

دق الباب، كانت سكرتيرة رجل الأعمال، فشعرت بالارتباك،

اقتربت من ضيفتي في حوار بين اثنتين التقت رغباتهما.

ـ أين الجهاز؟

قمت بفتح حقيبة ضيفتي وأخرجت علبة الماكياج.

ـ هذا هو.

كان تصرفي مفاجئاً، فأدركت أني عرفت فأخذت أطرافها تتوقف عن الحركة. ابتعدت وهي ترمقني بنظرة ملتبسة وغادرت الغرفة.

هنا طلبت من ضيفتي الخروج، أجلستها في المقهى وتوجهت إلى موظف الاستقبال طالباً حجز غرفة جديدة لصديق سوف يصل بعد ساعة.

سلمت المفتاح للسيدة المتوترة ودعوتها للبقاء حتى عودتي. اتجهت إلى الغرفة 199 حيث استقبلتني السكرتيرة مرحة وبهدوء وأنا أحتضنها:

ـ هل كان شقيق عثمان في غرفتك؟

ـ قد يكون..

لم تقل شيئاً وقدمت لي كأساً من عصير الفواكه ثم استأذنت للاتصال بالهاتف.. كانت تتحدث بهمس وبلغة مختلطة بين العربية والإنجليزية، ثم أقبلت نحوي. كان

كل شيء فيها يتضخم وأنا أتقلص، أعادني إلى طبيعتي رنين الهاتف ثم مغادرتها الغرفة بسرعة.. استعدت هدوئي ثم خرجت من الغرفة واتجهت إلى غرفتي، كان هناك دخان وأناس متجمهرون فانسحبت بهدوء.

كان جواز سفري في جيبي، فاتجهت إلى المطار. توهمت أن هناك من يتابعني، تقدمت من مكتب سفريات وطلبت من الموظفة تذكرة سفر إلى جدة أغريتها بمكافأة إذا أكدت الحجز والسفر على أقرب رحلة. كانت الرحلة بعد ساعة إذ أمكن توفير المقعد لأنني بمفردي، شعرت بالأمان والطائرة تحلق في الفضاء ولما اتجهت إلى الحمّام لمحت وجه امرأة مألوفاً أثار الرعب في داخلي، وأنا أجلس على كرسي الحمام لم أهتم بالوقت وإذ بطرقات متكررة على الباب، كانت المضيفة وفوق ذراعها طفل.

الظاهرة

الموت يحاصرني من كل اتجاه عبر الزمان ومن خلال المكان وفيما يدور في حوار الأصدقاء كل مساء حتى في غيابهم.

قشعريرة البرد تسري في جسدي وتحرمني من استشعار السعادة الموؤودة في تطلعاتي رغم أن الطريق الطويل الذي يأخذني كل يوم إلى العمل ثم المنزل فالمقهى يبقى ثابتاً إلا أنني أتشبث بالقلق عندما أنوي الاتجاه إلى مكان آخر مستعجلاً النكوص.

ـ ماذا تبقى من الزمن؟

ـ الساعة تشير إلى الواحدة والنصف صباحاً.

ـ يعني أن التلفزيون أقفل.

ـ أجل..

ـ يعني أن وقت النوم حان حتى لا تفوتنا صلاة الفجر.

ـ وحتى لا تتأخر عن السابعة والنصف.

نهض من مكانه، أخذ يتأملني وأنا ما زلت متشبثاً

بمصِّ الشيشة (المداعة) والدخان يخرج من طرف اللَيْ مليئاً برائحة الجراك المخلوط كما يحلو لصاحب المقهى أن يلعب حسابات الربح المركب.

شعرت أنه يكرهني، هكذا قالت نظراته وضحكته الصفراء. وتخيلت كل شيء، اتجهنا إلى باب المقهى، كانت عربتنا تقبع وحيدة.

أخذت أبحث عن المفاتيح، كان جيبي خالياً. شاهدت ضحكة صديقي الصفراء مرة أخرى، فعدت أدراجي إلى المقعد الذي كنا نحتله، باحثاً بإصرار عن سلسلة المفاتيح وعن النادل الذي قدم لنا الطلبات، وأنا أقلب الوجوه من حولي لعلي أعثر عليه.

ـ لقد رحل.

ـ وكيف؟

ـ ينتهي عمله بمغادرتك.

عدت أدراجي، أيضاً شاهدت علامات الكره على وجه صديقي. أهملت تفحصه والأسئلة التي أتوقع أن يطرحها، تأملت العربة مركّزاً نظراتي على مكان تشغيل المحرك (السويتش) وكانت المفاتيح هناك فأشرت إليها. طوقنا الارتباك، درت حول العربة لعلي أعثر على باب مفتوح كما هي العادة، لم ألاحظ سيارة الشرطة الواقفة خلف السياج من الجانب الآخر للطريق. أخذت أضغط

على زجاج الأبواب لعل واحداً منها يهبط. أسرع صديقي إلى الأرض الخالية التي بقرب المقهى بحثاً عن سلك لنزع أزرار الأمان..كل الجهود ذهبت هباء. فجأة توقفت سيارة شرطة وترجل منها عنصران اتجها بحذر نحونا. كان الثالث يراقبنا من داخل السيارة، فتحول الارتباك عرقاً ينبثق من أطرافي.

ـ ماذا تفعلان؟

ـ المفاتيح داخل السيارة.

ـ هل تخصكما؟

كان السؤال مفاجئاً، أخذ صديقي يضحك، اتجه إلى سيارة الشرطة، فتح الباب الخلفي وركب. طوقني الاثنان ربطا يديّ بالقيد، عبثاً كنت أحاول قول شيء. جلست بالقرب من صديقي الذي مازال يضحك. اخترقت نظراتي زجاج السيارة، كان النادل يقف خلف سور المقهى يراقبنا، التفت إلى صديقي الذي كف عن الضحك مع انطلاقة السيارة فلم أجده. كان أحد رجال الشرطة مغمض العينين من الإرهاق أما الآخر فكان يتحدث مع السائق.

مقاطع من حياة جرذ

(1)

توقف قليلاً. وأجال نظره فيما حوله. الشارع خال من المارة، لقد رصد كل شيء.

يعرف ذلك مسبقاً ثم اتجه إلى الباب المشرع. ولج المكتبة تجول بين الرفوف قليلاً. ثم اقترب من موظف المكتبة.

ـ لو سمحت هل شاكر موجود؟

ـ من؟

ـ الأستاذ شاكر..

تأمله الموظف لحظات ثم رفع سمّاعة الهاتف وطلب رقماً داخلياً ثم أعاد السمّاعة.

ـ أجل في مكتبه.

خرج بهدوء متمايلاً في مشيته. للمرة العاشرة يقدم على هذه الحركة، وتردده الراصد لمقر النادي الأدبي يملأ داخله بالخيلاء والطريق يمتلئ بالمارة.

وهو يجتاز بوابة المبنى متجهاً إلى عربته، لمحه بعض من يعرفه. أشار إليهم بزهو. ثم امتطى عربته مغادراً.

(2)

الساعة تشير إلى السادسة صباحاً ذات يوم منذ عشرين عاماً، أخذ الطفل النحيل يجتاز الطريق الترابي متجهاً إلى مدرسة القرية، والدته تتابعه بنظراتها. كلما اختفى تلاحقه حتى لا يغيب عن نظرها، تجاوز الخوف بإصراره على أن يصل أول الطلاب حتى يحتل المقعد الأول في فصله. وهذا يجعله يبكر بالذهاب كل يوم، لمحها أحد عمال المزارع الغرباء تتلصص. مازال الظلام يسيطر على الكون، فأخذ يراقبها حتى عادت. اعترض طريقها، تأملته بثبات فلمحت في عينيه نداء، تلفتت حولها.. لا أحد هناك.. عادت إلى المنزل تمددت في فراشها متعبة. أخلدت إلى النوم.

(3)

بحثه عن السباق المدرسي في القرية توقف بعد انتقاله إلى دراسة المرحلة المتوسطة والثانوية في المدينة، وأقام في منزل خاله، فالتقرب من المدرسين والوشاية بالزملاء وسيلة تمنحه درجات التفوق.

روضة ابنة خاله التي تفصلها عنه خمس سنوات تراقب نجاحه المستمر وهو يساعدها في حل واجباتها وشرح دروسها ولم تشعر بأنه بعيد عنها بفكره وقلبه. همه تحقيق طموحه ومع ظهور نتائج اختبار الثانوية العامة عاد إلى القرية مخططاً لانتقال آخر. أخذ يجهز أوراقه للالتحاق بالجامعة في مكة المكرمة ليبرمج هناك معاشه بعيداً.

(4)

استمر في مزاولة التجسس على زملائه في الكلية وأخذ يصنفهم لدى رؤساء الأقسام من خلال مخالطته لهم.

وأصبح أحد أعضاء هيئة التدريس في الكلية لحصوله على الامتياز والمكانة التي كسبها لدى إدارة الجامعة.

فخالطه الزهو. وتلفت حوله فلم يجد أصدقاء الماضي، وأخذ يكون روابط عمل بين وقت وآخر.

(5)

عاد إلى روضة، شعر بأنها تشاركه أفكاره ونجاحه. أخذت تبتسم مدركة الدور الذي يريده لها. وهي تنتقل من مجتمع محدود التعليم إلى وسط تنوعت فيه المشارب وكثرت عنه الحكايات.

كان يأتي نهاية كل يوم مرهقاً. فتتأمله وهو يتضاءل أمامها.

ـ سوف أكمل دراستي.

ـ أين..؟

ـ في الجامعة.

ـ ماذا؟

توقف عن النقاش وقدم أوراقها إلى الكلية التي يحاضر فيها، وفي قسم آخر منحها فرصة التفوق التي لم تكن بحاجة إليها.

واستطاعت أن تحقق دوراً قيادياً في النشاط الطالبي. نجاح جديد أصابه بالغرور وهو يلاحق نجاحها، واستقر في ذهنه أن قدرته أكبر.

(6)

توقف عند فكرة المولود الذي تأخر وهو يداعب أطفال الزملاء. فكر في الزواج من طالبة يشرف على بحث تعده.

كانت تناقشه بحرارة، شعر بأن سلطانها يتعاظم . في صمت تزوجها وكانت الثمرة الأولى ولداً.

(7)

روضة لم تتوقف عن مواصلة تحصيلها العلمي.

(8)

اصطدم بطالب من الكلية يناقش بعض القضايا التي يطرحها في محاضراته في صحيفة يعمل لديها محرراً. فوجدها فرصة حيث أن السبق في الحرم الجامعي حرمه المشاركة في الصحف فأخذ يتحدث ويزود الطالب بمقالات تحمل نظرته العلمية ودوره في صوغ محاور جديدة لفكر وثقافة طليعية.

(9)

رُشّح اسمه لعمادة القسم وللمرة الثانية توجس الفشل فاتصل بروضة مستنجداً فقررت مساندته وقد أصبحت عضواً في مجلس الكلية. غادر مكتبه متجهاً إلى المنزل. لم يكن هناك سوى طفله وخادمة سمراء؛ فاجأها مظهره المرهق فتناولت غترته وعقاله وأدخلته غرفة النوم فتمدد بثوبه بعدما أحضرت له كوب ماء تجرعه. لم يقاوم قيامها بتجريده من ملابسه بل أحس بخدر لذيذ وهي تدلك جسده العاري وكفه تتسلل بين ملابسها.

السمكة

تأتين حافية يصهر قدميك زفت الطريق بلهبه. كان ذلك في الثانية ظهراً من أحد أيام تموز/يوليو، بينما كنت أترقب مجيئك في الثامنة مساء وقد ترطب المكان بندى نسمة مطر صيف.

ـ ها أنا..

كنت قد حشرت في العربة قربي، كفي بين يديك تمتص لهب الصيف.. تحاول اختراق شرارات الموعد في عينيك.

ـ وبعد..!

قلتها همساً حتى أزيد الموقف التهاباً، رغم هدير مكيف العربة وظل الأشجار التي دسست العربة تحتها في حديقة الحي المهجورة. تطلعت إليّ وغرست أظفارك في ظهر كفي التي استرخت فوق فخذك.. الألم جعل أصابعي تتقلص، تضغط بقسوة على الفخذ الذي تغضن عليه الثوب الفضفاض.

ـ لقد أوجعتني..

تفحصت ظهر الكف حيث أنشبت أظفارك. ولوحت بها أمام عينيك. آثار الأظفار بارزة والدم المحتقن في الشقوق يرسم الحالة.

مددت كفك إلى علبة مناديل الورق التي ارتمت عند أقدامنا واستللت منها واحدة بللتها برضابك ثم أعدت كفي إلى مكانها وأمررت المنديل على جرحي .

عاد الهدوء إلي. شعرت بالانتصار وأنت تعيدين تبليل أطراف المنديل برضابك ثم تمسحين ظهر كفي الراقدة بسلام بين فخذيك.

لحظت ارتكاز نظرتي، فنزعت كفي من مكانها وضممتها إلى صدرك.

ـ آسفة.

انتابني إحساس عجيب وأنا أتأمل انكسار ابتسامتها وانصهار لحظة الغضب التي حومت فجأة في هذه الابتسامة الصغيرة، فأخذت ألملم الشعر المنسدل بحرية فوق الجبين والكتفين والظهر. طول الشعر يغيظني إنما كان لملمسه هذه المرة طعم آخر.

ـ لماذا الصمت دائماً يحكم لقاءنا؟

مرة أخرى كانت المتحدثة. انبهاري بلحظة اللقاء وخوفي من انكشاف أمرنا لم يمنحاني فرصة الحديث الذي أجده سلساً عبر أسلاك الهاتف بين وقت وآخر.

ـ لقد شدني حديثك الذي يؤسس للانعتاق من ربقة الخوف..!

إنها تمسك بي من حيث لا أدري، طوقت أناملي خصلة شعر فجذبتها نحوي. أغلقت جفنيها ووجهي يقترب من وجهها. تلامست شفاهنا.

تخلت كفاها عن كفي التي عادت إلى مكانها فوق الفخذين مستكينة في اطمئنان.

اقترابها جعل كفي تنحشر بين فخذيها، وبحركة غير معتمدة انفرجت أصابعي تدغدغ ما حولها. انهارت الأشياء حولي، لم أكن أتوقع أن هذا العبث سوف يولد الاختناق المفاجئ.

تمالكت الموقف، أخذت أراقب الطريق الذي اختفى خلف الأشجار وقطع الضياء التي تخترق الأغصان المتشابكة بوحشية وغلو.

تلمست الصدر الذي يعلو ويهبط..لم أجد النهدين في مكانهما.. كان هناك تجويف لا نهائي. لم أتمكن من استعادة كفي التي أخذت تهوي في العمق السحيق.

ـ إنك تؤلمني.

كانت كفي في مكانها. شعرت بالارتباك، أخذت أضحك وأنا أمرر شفتي على العينين المغمضتين، كنت الوحيد الذي يشعر بالحرية والضياع.

حيث كنت أرفض العادي. ففقدت إحساسي بكل من حولي سواك أنت حيث كنت التجاوز الذي توافق مع احترافي الهروب وقد تناثرت أطرافنا في الفراغ.

ـ إنك تزعجني.

كررتها مرة أخرى بحدة. تيبست الكلمات على شفتي، فطوقتها بذراعي واستكانت في حضني كما قطة أليفة تبحث عن الدفء.

أصرت على أن تتسلم المقود..التصقت بي، غيرت بدال الحركة، استقرت قدمها فوق ضاغط الوقود وانسابت ناعمة بين ممرات الحديقة إلى الطريق المؤدي إلى خارج المدينة. الخوف الذي سكن داخلي انفلت كما حمامة فك إسارها فابتعدت محلقة في الفضاء.

لم يعد للخوف مكان. وبين حضن الجبال غرب الطائف حيث نسمع هدير العربات المغادرة انشغلنا بفعل، لا يعنينا اختيار كلمات بيانه الختامي.

الحلم

الود مفقود كما هي الحال بين أصحاب المهنة الواحدة. سبقني كثيراً بحكم علاقاته الخاصة، أتسقط أخباره بين وقت وآخر باعثاً بعض الحياة في علاقتنا العائدة إلى أيام الطفولة.

شعرت بالارتباك وأنا أقدم له بطاقة العضوية في الجمعية الأدبية لحرصه على هذه العضوية. حصل على البطاقة قبل الرجوع إلى مجلس الإدارة كما هو المعتاد، مؤهله في ذلك علاقاته الشخصية وتجربته الإبداعية.

من خلال البطاقة استطاع أن يحصل على حق طبع كتاب جديد كما تمكن من أخذ الموافقة على طبع كتاب لمسؤول كبير في الاستخبارات وآخر يشاركه طرحه في صحيفة صفراء قوتها في تمكن كتابها من قول أطروحات جريئة تسير في ركاب الحزب الذي تنتمي إليه الصحيفة.

وبالاتصال المستمر تمكن من أن يحقق تواصلاً بين المشرف على النشر في الجمعية والمسؤول الكبير من خلال الكتاب الذي أصبح قيد الطبع.

ـ هذه هي الصورة الحقيقية لكل الأمر.

ـ وما معنى قولك إنك مستبد؟

ـ أنا؟..

ـ أجل..

ـ متى؟

ـ في سياق حديثك الترحيبي بصديقك وأنت ترى النسخة الأولى من كتابي في عربته.

ـ قلتها بحسن نية. من خلال موقعي في الجمعية.

كان الحوار داخل دائرة مجهولة الاسم. استقبلني موظفوها في بداية الأمر بنظرات رهيبة وصمت مقلق وأنا أنتظر في أحد ممرات الدور الرابع بعد أن اختفى مرافقي في إحدى الغرف لأفاجأ بمن يصرخ بي: أنت.. أنت..

ولارتباكي لم أسمع النداء حتى اقترب الرجل وشدني عنوة من كتفي وثوبي حتى وقفت.

ـ هل أنت أصم؟..

ـ هاه.

وفاجأني بصفعة قوية على وجهي وتحاشيت الصفعة الثانية بتحريك رأسي كرد فعل إنما ركلني بقدمه ولم أنبس بكلمة واحدة.

ـ تعال..

سرت خلفه، الممر طويل على غير العادة. شعرت

بالإعياء غير أن خوفي قوي فولد في داخلي طاقة السير وولجنا غرفة محكمة النوافذ تتوسطها طاولة يجلس خلفها ثلاثة محققين. أخذت أدقق النظر فيهم فعرفت المسؤول الكبير.. وصديق الطفولة.

يقف خلفهم اثنان ضاعت ملامح وجهيهما يرتديان الزي الرسمي. قدم مرافقي الشرس التحية، ثم التفت نحوي حيث توقفت غير بعيد منه. وتقدم من الطاولة وتحدث هامساً ثم تحرك آلياً حتى وقف خلف الطاولة. تلفتّ حولي فلمحت مقعداً خلفي ملاصقاً الجدار تراجعت خطوات وانهرت عليه.

تفحصت الغرفة وأخذت أرصد تقاطيع وجه المسؤول الكبير الذي أشاهده للمرة الأولى رغم ظهور صوره كل يوم في الصحف، لكنه يبدو في الواقع مترهلاً مرهقاً.

لم أهتم بالباقين لإدراكي عدم قدرتي على تحقيق تواصل حقيقي معهم رغم همنا المشترك.

ـ لماذا لم تكتب مقدمة لكتابي؟

اكتشفت أن السؤال موجه إلي بعد أن تركزت نظرات الجميع علي.

ـ لأنه لا يدخل في اهتمامي الفكري.

ـ وهل يعفيك هذا؟

ـ أجل.. وقد أبدى أحد الزملاء حرصه عل كتابة هذه المقدمة.

ـ من؟

ـ الأخ أداة.. آسف الأستاذ أحمد.

ـ ولماذا لم تولِ الكتاب عنايتك كمسؤول؟

ـ الاهتمام الزائد الذي أبداه أيضاً الأستاذ أحمد.

ـ إذاً تعفي نفسك من الإهمال؟

ـ وأي إهمال وقد خرج الكتاب بشكل جيد.

أخذ الثلاثة يتداولون الحديث. ثم تناول صديقي الودود بعض الأوراق من يد المسؤول وأخذ يقرأ كل ما أسمعه كان حركة شفاه غليظة وطنيناً.

قد أكون غفوت من الإرهاق ونمت جالساً. أثناء ذلك أخذت أتذكر حالماً بصعودي الفكري الذي اعترته إحن استطعت التغلب عليها بجهد وقدرة عجيبة. جعل "حنان" الفتاة التي اعترضت طريقي بموهبتها الفنية وطيبة والدتها تتزوج أحد رجال المباحث العامة، ويتزوج إحدى قريباتي مسؤول هام في الشرطة . لم يؤثر ذلك في طرحي الفكري ومساهماتي على منبر الجمعية أو مجلسي الخاص في مقهى الحديقة بعد التاسعة ليلاً لتدخين الشيشة وثلة من الأصدقاء أو تواصلي مع الصحف.

تجاوزت محنة فقدان حنان ولم أحتفل بزواج قريبتي كما لم تهتم بملاحظات أحدهم وهو يطالبني بكتابة تقرير عن نشاط الجمعية وأسماء المساهمين في بعض البرامج. أعالج كل شيء بالنسيان.

شعرت بالبرد فأخذت أضم أطرافي، فتحت عيني عنوة كان كل شيء حولي أسود والظلام يطبق على المكان. حاولت الوقوف فاصطدم رأسي بشيء صلب، رفعت يدي وأخذت أتحسس ما حولي. كان السقف منخفضاً وحولي ظلام وجدران ملساء وكانت عيناي معصوبتين. تأكدت من ذلك، أزحت العصابة أيضاً. كل المعالم مفقودة.

تذكرت غرفة التحقيق، رجال الشرطة، المحققين الثلاثة، التقرير المقدم عن نشاطي الفكري، أخذت أتلمس الجدران من جديد متذكراً الصفعة المدوية على وجهي والركلة القاسية. جلست القرفصاء، دفنت رأسي بين ركبتي اللتين طوقتهما بذراعي ونمت.

نعيمة

احترف الكتابة وأخذ هاجس الكلمة يقلق وحدته ويشاركه الحديث في المجالس. لم يستطع إدراك الهدف الذي يبتغيه حتى وهو يمارس لعبة أحلام الظهيرة مرسلاً نظره بعيداً وشريط سينمائي يتدرج أمامه حاملاً كل معطيات الحياة التي يريد.

تأتيه المشاكسة من أقرب الناس إليه. تتمثل في عدم المشاركة في ما يطرحه من نقاط رغم الاتفاق عليها. وبالتالي يجد نفسه وحيداً في متابعة كل طرح حتى النهاية.

أحلام الظهيرة تراكمت في داخله حتى أخذ كل مساء وهو يلج فراشه يجرّد نعيمة من ملابسها ويطلب منها أن ترقص له وحيداً في غرفته وقد خيم الظلام حتى يعطي خياله فرصة احتوائها وتلمس أنفاسها.

اتصال نعيمة المستمر وحديث بعض من تلتقيهم عنها ولّد في داخله صورة شاذة رفض تصديقها وبالتالي اكتفى بأن يكون الهاتف وسيلة اتصال حتى لا يصطدم مع قناعاته.

ـ ما هي نتائج الرحلة؟

ـ انطباع جيد.

ـ إذاً لا بد من الكتابة.

ـ لمن؟

ـ للآخرين.

ـ ومن هم الآخرون؟

كانت دائماً رافضة أي قناعة في حديثها معه. بينما ارتماؤها في أحضان الآخرين وسيلة أرادتها بقناعة لتحقيق معادلة أشعلت في داخلها مرجل رفض الحياة معه من خلال الهاتف لقول ما تريد. ومع الآخرين وهم يترقبون مقدمها عند الحادية عشرة ظهراً تفعل ما تريد وهي تبحث عن صحف وشيء لا تدري كنهه؛ قد تجده في حديث غريب استطاع أن يجعلها تسير خلفه حتى عربته. تدرك أن هناك مؤامرة ضدها ومع ذلك تتمادى في تجاهل إدراكها لذلك.

ـ لماذا لم تشارك في الحوار؟

ـ حول ماذا؟

ـ هوية الثقافة.

ـ أين؟

ـ في..

قاطعها قبل أن تتم جملتها. شعر أن في داخلها هماً

آخر وأخذ الحديث منحى مختلفاً لكنه توقف معتذراً وأغلق الهاتف والإحباط في داخله. كانت قبلها فاطمة وأخرى تدعى فاتنة بين يوم وآخر يأتي ابنها لأخذ ما تطلبه من أوراق.

كثيرة هي أحلام الظهيرة التي اتهمه الجميع بأنها من صنعه وبالتالي كان العداء المستحكم المترسب في الأعماق حتى عندما تلتقي الأهداف.

وقف على الرصيف منتظراً خلو الطريق من السيارات حتى يعبر إلى الاتجاه الثاني حيث مبنى البريد يبدو شامخاً وقد مدّ الخطى ماشياً بسرعة. وصل إلى الجزيرة التي تفصل الاتجاهين، توقف قليلاً وواصل السير حتى ولج بوابة البريد. وهو يفتح باب صندوقه الخاص انطلقت رصاصة من الفتحة استقرت في صدره؛ الصور تختلط أمامه والدم يلطخ صناديق البريد، اعتمد على الجدار، أخذ يستعيد أنفاسه.. ارتسمت عيون فوق الجدار وأبواب الصناديق وسقف المكان أخذت تحدق فيه. وتردد صدى ضحكة مجلجلة خلف الأبواب أخذت ترتفع.

راح يفكر في مصدرها، تلفت حوله، الدم توقف عن الانبثاق، الضحكة يعرف صاحبها، صرخ بكل قوته:

ـ زيد.. زيد..

انكفأ على عقبيه مغادراً المكان، أصداء الضحكة في

الممرات، بوابة مبنى البريد الزجاجية كما هي العادة مشرعة، رجل الأمن خلف طاولته المنتصبة في الممر.

غادر المبنى، سيارته في مكانها. اتجه نحوها دون أن يتأكد من خلو الطريق.. دهمته سيارة مسرعة، توقفت أنفاسه، أخذ الدم ينبثق مجدداً ملطخاً الإسفلت ويده قابضة على حلقة المفاتيح. كانت نعيمة تقف في الجهة المقابلة أمام إشارة السير داخل إحدى العربات المتوقفة في انتظار الضوء الأخضر للعبور.

الفاتورة

صاحت به أريد ولداً وتوقف الحوار ليخرج إلى عمله. طول الطريق كان يفكر في الولد الذي لن يأتي. انه الوحيد الذي حرم من الخلفة.

دخل المكتب عابس الوجه. وقّع في دفتر الدوام ثم وقف أمام مكتب زميله..

ـ لقد اشتد الخصام.

ـ من أجل الأبناء.

ـ نعم..

ـ ياسيدي اعرض أمرك على الأطباء.

ـ لم أسكت..

ـ إذاً تابع حتى تصل إلى نتيجة.

كان عليه أن يتابع حتى يتحقق الأمل. أما سميرة فقد تكومت في الفراش وحيدة وأخذت تتلفت حولها. رن جرس الهاتف، لم تهتم بالأمر ولكن استمراره دفعها إلى الاجابة.

ـ نعم..

ـ هل أنت نائمة؟

ـ وكيف يكون ذلك؟

ـ أكيد هناك أمر يشغلك.

ـ أجل..

الصوت غريب..ووجدت فيه من يشاركها الهم. كان كل صباح يتصل بها. ما عدا يومي الخميس والجمعة.

كان همها كبيراً وأخذت تؤكد أن حرمانها من الخلف بسبب آخر، فأخذ يضحك..

ـ ولماذا لاتجربين؟

ـ أجرب ماذا؟

ـ رجلاً يمنحك الولد.

ـ ..

ـ لماذا صمت ومعظم التحاليل لم تحدد السبب؟

اشتعلت الفكرة في رأسها. فأخذت تصعد من نقاش مراجعة الأطباء وتأكيد الفحوصات.. ومع ذلك لم يتحقق شيء..

كانت تتأمل كيف تداعب أطفال باقي أفراد الأسرة بحسرة وتحرص على مسح دموعهم وحمايتهم من العقاب. امتلأت غرفتها بالدمى والألعاب.

شيء في داخلها يزرع الأمل. الشجار لم يتوقف. ومراجعة عيادات الأطباء التي تضاربت تقاريرها تتزايد.

ـ هاه ماذا قررت؟

ـ لا شيء.

ـ اتركي الأمر..

ذات مساء رن الهاتف؛ كان أسامة المجيب.

ـ نعم..

ـ الأخ أسامة؟

ـ نعم.

ـ أكلمك من قسم علاقات المرضى بالمستشفى التخصصي.

ـ خير..

ـ لك أمر بالعلاج..

أسرع إليها مفكراً في ذلك وهو يشعر بالارتباك. كان حديثه متقطعاً. لقد حاول أكثر من مرة أن يدخل المستشفى التخصصي لوجود تقنية عالية فلم يفلح. لم يقل شيئاً وقد داخله الشك.

اتجه إلى المستشفى. تأكد من وجود الأمر وحصل على موعد لدى عيادة العقم.

ـ لا أدري كيف..

ـ ماذا؟

ـ أمس اتصل أحدهم..

ـ نعم!

ـ وقال إن لدي فرصة للعلاج بالمستشفى التخصصي.

ـ وماذا؟

ـ تأكدت اليوم من ذلك وأخذت موعداً لمراجعة الأخصائي.

لا تدري ماذا تقول. الأمر أخذ اتجاهاً آخر إذ شعرت بالخوف يتلبسها ويشل فرحتها. كان عليها أن تأخذ أيضاً موعداً بعدما جاءت الفحوص إيجابية، الهاتف انقطع عن الرنين كل صباح. كانت تجلس في غرفة الانتظار تتبادل الحديث مع مراجعة..

ـ إنها فرصة لتحصلي على الولد.

لدغها التقرير المفاجئ في إجابة المرأة الغريبة..

ـ فرصة.. وكيف؟

لم تجد الإجابة الشافية. كانت المرأة تضحك وهي تشير إلى بطنها المتكور.. دخلت على الطبيب تأملته. كان وسيماً رغم سنه المتقدم؛ أخذت تتخيل أشياء كثيرة وأصابعه تجس جسمها. تكور في داخلها شيء فأخذت ترتعش، دخل مساعد الطبيب وهي ممددة على طاولة الكشف فراح يتأملها وهو يقرأ التقرير. اقترب منها لجس نبضها فالتقت نظراتهما. لاشيء يملأ ترقبها.

ـ أين أنت؟

ـ أخيراً. .

ـ أجل لماذا لم تجيبي عن اتصالي؟
ـ كنت في المستشفى.
ـ لإجراء الفحوصات؟
ـ أجل..
ـ ولماذا؟
ـ أنت..

وأغلقت الهاتف. لا تدري ماذا قالت. تمددت على أحد المقاعد في غرفة الجلوس وأخذت تتأمل سقف الغرفة، الباب يقرع، نهضت في تثاقل، كان حارس العمارة يناولها فاتورة عداد الكهرباء.

استغربت المصادفة وراحت تتأمل الحارس العجوز يغادرها صاعداً العمارة؛ قبل أن تغلق الباب انبثق من المصعد شيء سرق ثباتها وأنفاسها تتلاحق..

الظلام يخيم على الغرفة.

المكان

لحظة وينفجر الموقف. الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل وأنا أقف مع مجموعة من الرجال والأطفال أمام بوابة صالة النساء في قصر أفراح الحياة الذي أشعلت أضواؤه المكان.

كان وقوفي الحائر والمرتبك دليلاً على سريان قلق من سبقني إلى البوابة حيث لا يوجد بواب. ولا يدري أي واحد من الواقفين كيف يعلن اسمه حتى تخرج أسرته. جميع الوجوه غريبة الملامح.

صوت الغناء يتردد مكتوماً بين جنبات المكان. وفي الباب نتوء أشار أحدهم بأنه مركز نداء يستطيع كل فرد أن يقرّب فمه منه ويعلن اسمه حتى تسمع عائلته عن وجوده وبالتالي تخرج دون عناء. تكومنا حول النتوء، تساءل البعض عن صحة الموقف وجاء بعض الأطفال يعلنون أن بعض النساء يرفضن الخروج حتى يشاهدن زفة العروس.

ومن خلال قلقي تقهقرت إلى جدار الفناء الذي يطل عليه مدخل صالة النساء وأخذت أتأمل الجميع. تراودني

فكرة دعوة أحد الأطفال وتكليفه البحث عن زوجتي التي أحضرتها في العاشرة ليلاً على أن أعود لأخذها في الواحدة.

وجلست في الدار مع أبنائي أمام التلفزيون وتقليب بعض الصحف. الساعة الثانية بعد منتصف الليل، أرتال من النساء والأطفال يخرجن من صالة النساء. والواقفون حولي من الرجال ينسل من بينهم بين وقت وآخر واحد واثنان في الطريق إلى العربة المحشورة في الممرات المحيطة بقصر الأفراح وقد سارت خلف كل واحد أسرته.

رائحة العطور النسائية تملأ المكان. إحداهن تنزلق أمامنا فتتداركها مرافقاتها، العباءات السوداء المختلفة الموديلات تشي عما بداخلها من أجسام وملابس وعقود وخواتم الذهب.. بعض العيون تتلصص بجرأة من فتحات البراقع أو الحجاب الخفيف.

تلتقي بين وقت وآخر نظراتي ونظرات عابرة متلصصة.. تقدم طفل لا أميز مظهره من المكان الذي أقف فيه.

ـ عائلة سعد الأحمر؟

كان صوته خافتاً وهو يتأمل الواقفين.. أشرت إليه فاقترب مني وأعاد النداء.

ـ عائلة سعد الأحمر..

هززت رأسي بالإيجاب واختفى في بوابة الصالة..

الساعة الثانية والنصف. كانت زوجتي تخرج من خلف السيارات المكومة أمام البوابة تختفي معالمها خلف العباءة الثقيلة.. وقبل أن تصل إلي تعثرت خطواتها فانكبت على وجهها.

ضحك الرجل الواقف بجانبي فأخذت أتأمله وأنا أغادر مكاني. اتجهت إلى العربة..

الرائحة

دخلت عيادة طب الأسنان في المستشفى فلم أجد أحداً. جلست على أحد المقاعد أمام طاولة الطبيب حيث يصلني صوت نسائي من الغرفة المجاورة عند الساعة التاسعة صباحاً.

انبثق الباب عن سيدة مكتنزة تلبس رداء أبيض ونظارة طبية مدلاة تصلح من شعرها وتسحب رداءها. ما إن لمحتني حتى توقفت عن الحركة ثم التفتت خلفها.. حيث برزت أخرى أقل حجماً، وبهدوء انحشرت الأولى خلف المكتب فقدمت لها بطاقة المراجعة.

كان المطلوب إعداد طقم أسنان لوالدتي التي تراجع العيادة منذ فترة، أخذت أتفحص الأخرى التي وقفت بالقرب من الطاولة والتي أعرفها منذ حضوري المستمر مع والدتي.

ـ أهلاً أستاذ حامد.

ـ أهلاً سميرة.

مددت يدي مصافحاً وأنا أقف.

تأملتنا الطبيبة بهدوء.

ـ الأستاذ يعمل فين؟

ـ في التعليم.

قالت ذلك سميرة ثم واصلت..

ـ أصل الدكتورة منى تحاول إحضار أولادها ومعرفة إمكانية دراستهم بالسعودية.

ـ إنه شيء عادي..

وأخذت أشرح طريقة إحضار الوثائق وتصديقها من الخارجية لتحديد مراحلهم.

ـ سوف يصلون مع والدهم بعد أسبوعين..

ـ أنا تحت الأمر.

ونهضت من مقعدي

ـ المطلوب إيه ..!

قالت سميرة نيابة عني..

ـ والدته لها ملف ويريد تنظيف الطقم حسب العادة..

وتناولت طقم الأسنان واختفت في الغرفة الثانية، نهضت الدكتورة فرحت أتأمل جسمها المكتنز.. ومددت يدي مصافحاً.. استرخت كفها بين يدي طويلاً..

ـ ولماذا لا تفحص أسنانك؟

شعرت برغبة في ذلك.

ـ كلها ثوانٍ.

جلست على كرسي الفحص فاقتربت من وجهي، فتحت فمي فراحت تفحص أسناني في حين كنت ادقق في تشكل صدرها الكبير.

رائحتها طيبة، شعرت بخدر غريب، توقفت عن الفحص.. تأملتها في المرآة المقابلة تقف خلفي.. في انتظار نزولي عن الكرسي تريثت قليلاً. كانت تقوم بفتح الزر العلوي من ثوبها وتصلح ياقته.

ـ ذوقك في العطر رائع!

ابتسمت واقتربت من الكرسي..

ـ ايه؟

ـ ذوقك في الريحه رائع!

ـ شكراً.

مددت يدي وأنا أقف فمدت كفها، أخذت أتأمل قسمات وجهها.. دخلت سميرة فالتفتنا نحوها وهي تقترب منا.

ـ مازلت هنا..

ـ أجل.

ـ حسب العادة بعد المغرب.

وخرجت من العيادة أمام نظرات الاثنتين.. وعندما عدت في المساء كانت العيادة مكتظة بالمراجعين.

انتظرت حتى أطلت سميرة لدعوة مريض جديد.

أدخلت المريض ثم عادت وأعطتني لفافة بها طقم الأسنان.

ـ الدكتورة عايزاك..

ـ بكره أمر الصبح.

ـ تعال الساعة التاسعة ..نهاية الدوام الليلة.

ـ الليلة..!

لم أهتم بالأمر وفي الصباح كان علي وأنا في طريقي إلى العمل أن أمر على المستشفى فلم أجدها. وفي العاشرة اتصلت بالمستشفى فلم أجدها، ومع صلاة الظهر اتجهت إلى المستشفى سألت عنها فوجدتها في غرفة التمريض . ما إن لمحتني حتى وقفت..

ـ نعم..

ـ أبداً..

لمحتني سميرة واقتربت. .

ـ الدكتورة تحاول.. تستأجر شقة ومترددة. .

ـ ولماذا..!

ـ تخشى أن تكون بعيدة عن المدارس.

ـ لا يهم.

وتدخلت الدكتورة في الحديث.

ـ أبداً.. يهم لأن هنا زحمة.

ـ طيب.. ما هو المطلوب مني؟

ـ تحديد موقع مناسب.

ـ عاينت شقة مناسبة..!

هزت سميرة رأسها.. وأشارت بيدها شمال المستشفى.. خرجت الدكتورة من بوابة المستشفى وأنا خلفها، أشارت إلى عمارة في الشارع العام..

سرت خلفها حتى وقفنا أمام بوابة العمارة.. نهض البواب محتفياً بنا وسبقنا إلى الداخل. ناولني مفتاح الشقة وفتح لنا باب المصعد.. دخلت الشقة وهي خلفي.

أخذنا نتجول في الشقة المفروشة بأثاث يحتاج إلى تجديد.

ـ يا أخ.. يا أخ..

أخذت أنادي البواب وأسرعت إلى الباب فلم أجده. تلفت في الممر فلم أجد أحداً فعدت وأغلقت الباب.

أخذنا نتجول مجدداً ووقفنا أمام نافذة في غرفة الجلوس تطل على الشارع العام نشاهد منها المستشفى.

ـ الشقة مناسبة..

ـ والموقع أجمل..

التقت نظراتنا.. كانت رائحتها تخترق وجداني.

ـ لو سمحت اسم الريحه إيه..!

ضحكت وفتحت حقيبة يدها.. أخرجت قارورة العطر فرحت أتفحصها ثم أعدتها بعد أن سكبت منها على كفي ومسحت وجهي.

ـ خذ القارورة هدية.

ـ أبداً..

أصرت وأصررت على الرفض ونحن نتحرك نحو باب الخروج التحمت أيدينا وتوقفنا عن السير، عتمة الممر أخفت معالمنا فشعرت بأنفاسها، الرائحة أكثر نفاذاً.

شعرت ببرودة الحائط، كل شيء فيها يدفعني إلى الركض، سرى خدر لذيذ في جسمي، أمسكت بيدي كانت سميرة تنتظرنا أمام باب المستشفى؛ حدقت فينا وأخذت تضحك.

الثعبان

في داخلي خوف رهيب. كان حلمي البارحة غريباً تخيلت فيه أنني أمسكت بثعبان وحبسته في قارورة بها ماء محكمة الإقفال وقبل أن أنتبه من نومي على صوت المؤذن وهو يقيم صلاة الفجر كنت أدحرج الزجاجة حتى اختفت.

تعوذت من الشيطان. قمت من فراشي، تأملت زوجتي المندسة بقربي وأخذت أضحك.

الصباح جميل وغيوم خفيفة تحجب ضوء شمس الصباح الباردة، تلفت في الشارع الترابي وقد خلا من المارة. كانت أكياس الزبالة تنتظرني خلف الباب الخارجي فحملتها إلى برميل النفايات، بوادر الشتاء تلسع جسدي ببرودتها إذ كنا في نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر.

الساعة السادسة صباحاً.

عدت إلى الفراش واندسست بهدوء تحت الغطاء. زوجتي التي كانت تصلي في ركن الغرفة تتأملني ببرود. غادرت الغرفة إلى حيث ينام أسامة وبسمة.

صوتها يصلني وهي تدعوهما إلى القيام والاستعداد للمدرسة، أشياء معتادة..

تذكرت الثعبان المحبوس داخل الزجاجة فتبلد ذهني، لا أدري كيف استطعت إدخاله في الزجاجة وحبسه. أخذ القلق يساورني هل كان حياً أو ميتاً.

اقتحم أسامة مضلتي. اندس معي تحت الغطاء فشعرت ببرودته وما إن احتضنته حتى نام.

بسمة تبحث في المنزل عن حقيبتها وفردة الحذاء. وأسامة كان الأول في كل شيء:

في إعداد حقيبته وارتداء الملابس. أخذت أتلمس تقاطيع وجهه وأتفحص ابتسامته وهو يصر كل صباح على النوم بقربي قبل وصول حافلة المدرسة.

برود غريب أشعر به.

صوت منبه الحافلة، تململ في الفراش يمسك بطرف الغطاء أدفعه إلى النهوض وهو يشرع في ممارسة الاهمال.

أقفز من الفراش صارخاً به، أسبقه إلى الباب الخارجي أتأمل سائق الحافلة والأطفال.

يطل أسامة متردداً. يلمح أفضل أصدقائه يرتقي سلم الحافلة يجلس في المقعد الأمامي.

يغلق الباب..

تختفي في الطريق، تنتظر بسمة ارتدائي ملابسي حتى أوصلها إلى مدرستها القريبة من المنزل حيث تعود في الظهيرة مع زميلاتها.

صمتها الدائم يحيرني ورفض أمها زيارة المدرسة للسؤال عن مستواها الدراسي يثير القلق في داخلي.

وكما هي العادة طبعت قبلة على خدي قبل أن تترجل من السيارة.

اتخذت مساري المعتاد إلى المكتب.

الساعة السابعة والدقيقة الأربعون.

أقف أمام أول إشارة ضوئية.

أمامي بعد الإشارة أرتال من السيارات وآثار مياه ورجال شرطة، اشتعل الضوء الأخضر في الاشارة.

تحركنا بهدوء. حاذيت مكان التجمهر، كانت حافلة مدرسية محترقة، لمحت أطفالاً يقفون قرب سيارات الشرطة والإسعاف.

ترجلت من العربة، ركضت نحو الأطفال، أخذت أتفحصهم، إنني أعرفهم، اتجهت إلى الحافلة المحترقة.

زاد وجيف قلبي.

أمسكت بأحد رجال الشرطة..

ـ ماذا حدث؟

ـ حافلة مدرسية احترقت

ـ أفيها أحد؟

ـ الجميع بخير إلا ثلاثة أطفال تم نقلهم إلى المستشفى.

أصابني تبلد رهيب. عدت إلى تفحص الأطفال الجزعين.

لمحت مدير المدرسة الذي أسرع نحوي وبادرني منزعجاً.

ـ أين أسامة؟

ـ ذهب إلى المدرسة.

ـ في الحافلة؟

ـ أجل.

احتضنني فشعرت بارتجافه. لم أستوعب الموقف فأسرعت إلى عربتي، واتجهت إلى المستشفى ثم دخلت قسم الطوارئ فرأيت أسامة متمدداً فوق طاولة منزوية.

أخذت أتأمله بهدوء. تذكرت الثعبان وتذكرت في هذه اللحظة كيف اصطدته وطريقة حبسه في الزجاجة دون أن أتأكد من موته.

لكن أسامة كان متصلب الجسم بارد الأطراف وبسمته الصغيرة ذات الندبة على وجهه.

الطيب

بشيء من الحسرة، أخذت أمزق أوراقي نثار سنين من الهواجس والأحلام المنثالة. لم أفكر في أثر ذلك حتى وأنا أناقش الأصدقاء.

أكوام من أوراقي الممزقة وقصاصات الصحف والمجلات التي تراكمت مع تراكم الأيام يتلقفها بهدوء برميل النفايات القابع في شموخ أمام الباب الخارجي للمنزل.

تناسيت تلك الحالة وعدت إلى الكتابة متذكراً أوراقي وحديثي حتى لم أعد أبالي بما حولي.

ـ لقد حضرت واستلمت نسخ كتابها..

ـ من؟

ـ سارة.. ودفعت ألفي ريال.

ـ إذاً..

ـ تبقى خمسمائة..

وتذكرت / سارة / المرأة / المطلقة وهي تدفن رغباتها في وهم الكتابة وكان الحمل كتاباً تعسرت

ولادته.. حتى وقفت معها وإذا بها ترفض استلام وليدها وتختفي.

زاد ألمي وشعرت بالإرهاق والقرف من صورة الطيب الذي يرفض الانسحاب حتى لو وقف وحيداً لمجرد الوقوف في سذاجة وغباء.

سارة صورة لتراكمات سالبة بدؤها احتواء سعد على فكر وخوف حسين على مكانته في الإدارة حتى يكون صاحب دور في المؤسسة.

قبل أن يعود سعد كان تمزيقي لأوراقي وظلال من السوداوية تتراكم في داخلي.

الطريق الطويل تقترب نهايته والسيارة تتجاوز إشارة الطريق الأخيرة مغادراً الطائف في رحلة عمل، الفضاء أمامي يتسع وشمس الصباح الناعمة بين وقت وآخر تلامس وجهي ومنعطفات طريق الهدى تلتهم أفكاري.

كان المنعطف الأخير.. سمعت دوياً شديداً فاختل توازن العربة، والهاوية تفتح فمها. لكنني لم أعد أتذكر شيئاً.

المقال

(1)

رن جرس الهاتف. كانت تبحث عن شيء يلائم إعجابها بما تكتب، وأخذت تقرأ نصاً جديداً كتبته منذ ساعات إلا أنني قاطعتها.

ـ أين كنت عندما جاء هاجس الكتابة؟

ـ أعبث ببعض المجلات..

وجاءت مناسبة كبح جماح غرورها وإحساسها بأنها تكتب شيئاً هاماً.

ـ فقط..

ـ نعم.

ـ ألم تفكري في التجرد من ملابسك؟

ـ لماذا؟

وأخذت أضحك. بينما كانت تردد..لماذا. وتوقفت عن الضحك قائلاً:

ـ حتى تقفي أمام المرآة وتتأملي ما تحت سرك..!

ـ قذر..

وأغلقت الهاتف.

اعتدت إثارتها في مضامين كتاباتها بما تولده النصوص التي تقرأها عبر الهاتف.. وحالتي التي أرسمها عنها أثناء الحديث.

كانت تكذب وتخلق أعذاراً حتى لا نلتقي. وقناعتي باتصالها ومطالعة اسمها في جريدتها يولد داخلي حالات عن العلاقة الصوتية باسم مستعار.

ـ اسمع باقي النص..!

ـ من البداية.

وأخذت تقرأ، صوتها الطري يثير فيّ رعب الترقب ولم أشعر بتوقفها.. حتى صرخت.

ـ هيه.. هيه!

ـ صوتك جميل.

ـ متى اكتشفت ذلك؟

ـ الآن.

ـ والمقال؟

ـ يحتاج إلى قراءة أخرى..

وأغلقت الهاتف. عرفت قصدي من القراءة الثانية. هكذا توهمت لأنها لم تحتج رغم اعتيادي إقفالها لسماعة الهاتف المفاجئ عندما يأتي أحد أفراد أسرتها.

(2)

الساعة الثامنة ذات صباح وأنا أقلب أوراق المعاملات المتراكمة فوق المكتب وفي داخلي سكون عجيب..رن الهاتف.

ـ مفاجأة؟

لم أعتد اتصالها في مثل هذا الوقت.

ـ أكيد لديك عمل.

ـ أبداً.. صوتك ألجمني.

ـ وبعد..!

ـ لديك جديد؟

ـ عندي مهمة.. تقرير صحفي عن مستشفى الصحة النفسية.

ـ الآن..؟

ـ نعم.. في العاشرة.

أغلقت الهاتف. لا أدري كيف أجدها. المفاجأة زرعت الارتباك فلم أسألها كيف أتعرف عليها. خرجت من المكتب واخترت لسيارتي موقفاً منه أراقب المدخل.

زرعت أول خطوة فوق الرصيف وإذا بها تترجل من عربتها الفارهة. ميزت صوتها وهي تصرف السائق، ولمحت دفتراً اعتدت مطالعته كانت ترسله بين وقت وآخر مع صبي في العاشرة.

ـ أخيراً..!

ـ نعم.

بعد توزيع استبيانها على مراكز التقرير.

اتجهت نحو عربتي وصمتها يغريني بأن أوسع خطاي. فتحت لها باب العربة، احتضنت كفها وهي تتأمل الفراغ وأصلحت من جلستي خلف المقود. غادرنا المكان ولم يكن لدينا شيء نقوله.. مددت يدي إلى غطاء وجهها ورغم مقاومتها سحبته. كانت رائعة بسمرتها القريبة من البياض. أخذت أتفحصها بهلع، إنني أعرفها منذ آلاف السنين.

ـ أخيراً.

ـ ألا يوجد غيرها..!

ـ بلى.. لم أتوقع..

ـ بشعة؟

ـ أجل.. حتى أنني لا أدري ماذا أقول؟

ـ شكراً.

اخترت شوارع جانبية تخلو من المارة. تسللت كفي نحوها، تخللت أصابعها أصابعي في عناق صامت، رائحتها تملأ فضاء السيارة. انحسرت العباءة عن رأسها واستقرت فوق كتفيها ثم هزت رأسها فتناثر شعرها.

أسير دون هدف وإذا بنا خارج الطائف.

تكونت المغامرة في داخلي ابتعدنا أكثر.

الطريق الصحراوي الممتد نحو الشمال يتمادى أمامنا،

على جانب الطريق لمحت محطة بنزين ومقهى مسافرين. رمقتها مبتسماً وأنا أنحرف نحو المحطة. . توقفت بجانب المقهى، واتجهت إلى أحد عماله.

لم تتحرك من العربة، اتجهت نحوها وما إن فتحت لها الباب حتى ترجلت وصعدنا درج المقهى الجانبي حيث غرف العائلات وهي مترددة في الدخول.. وقفت ملتفة بالعباءة في وسط الغرفة، التصقت بها ودفعتها إلى النافذة نرصد الطريق.

ـ وماذا نشعل؟

ـ عناصر مقالنا القادم.

ابتعدت فشعرت برغبة جامحة في اجتياحها. كل شيء فيها يختلج.

تناولنا الإفطار.

ـ مقال.. فره.

ـ أراه لن يتكرر.

تداعى الحوار وهي تسابقني مغادرين المقهى، واصلت الطريق ومع أول فتحة في وسط الطريق عدنا.

لم ألحظ أن هناك من يتابعنا حتى اقتربنا من المدينة. أمام أول إشارة ضوئية شعرت بالخوف. تلفت حولي فتأكد وجلي عند الإشارة الثانية.

ـ هناك من يتابعنا.

ـ أين؟

ـ بهدوء.

ـ منذ.. متى؟

ـ لا أدري.. السيارة الزرقاء.

وأمام الإشارة الثالثة الخضراء كانت السيارة الزرقاء تسبقنا بأمتار ثم تمهلت تحسباً فكان أن اشتعلت حمراء .

ـ ندخل إحدى المكتبات.

ـ وبعد ذلك؟

ـ أوصلك إلى الدار.

ـ والمستشفى؟

ـ سوف أتصرف.

ترجلت بهدوء وتريثت حتى دخلت المنزل فعدت أدراجي. كان أحدهم يقف في منعطف الشارع، تأملني وأنا ألج بحذر الطريق العام.

(3)

الساعة الواحدة ظهراً.. رن الهاتف كانت هي، المكتب يعج بالمراجعين قلت.

ـ مقال الأمس جيد.

ضحكت..ولم تنبس بكلمة واحدة.

ـ أرجو ..أن يكون المقال التالي أفضل.

هز أحد المراجعين رأسه وهو يحدق فيّ ضاحكاً، ركزت عليه نظراتي وأنا أعتذر لانشغالي.

وأغلقت الهاتف.

ـ هاه.. هل قرأته؟

ـ لا..لكن شاهدته..!

التقت نظراتنا في توجس. قلبت الأوراق التي جاء لملاحقتها، وطلبت منه ما يؤكد علاقته بالأمر، فأخرج هويته من حافظة نقوده. . تهجيت الاسم وطابقته مع ما في الأوراق.

ـ هناك اختلاف؟

ـ إنه أبي .. أنا سامر.

حدقت فيه فتذكرت أني قابلته فالملامح معروفة، شيء في داخلي يقلقني. أنجزت توقيع الأوراق فابتسم وهو يغادر المكتب.

لم أكن متأكداً من حقيقة اسمها، فأسرعت إلى المكتب الذي حولت الأوراق عليه، وجدتها بين يدي موظف الصادر فأعدت تقليب محتوياتها فوجدت بياناً بأسماء أصحاب الاستحقاق: عواطف، سامر، سها، سعود، تماضر، ليلى، فاتن، ناصر.

وتوقفت عند اسم عواطف وناصر. إنها هي وناصر صبي العاشرة، عدت إلى مكتبي وأخرجت من درج

المكتب عدداً قديماً من صحيفتها يحوي مقالاً يحمل اسمها (عواطف الحمود). أخذت أقرأه وقد خلا المكتب من المراجعين، وكذلك الموظفين وقد ربطت مسودة مقالي في طرف الصفحة بمشبك أوراق.

لم ألاحظ أن وقت العمل انتهى وأن الهدوء يخيم على المكان.

غادرت المكتب، سيارتي تقف وحيدة في الفناء . الباب مغلق، تلفت أبحث عن الحارس، أقبل راكضاً لا أدري من أين جاء.. وقام بفتح الباب.

القيافة

تلفت راصداً في نهاية الشارع عربة نقل النفايات وعمال شركة النظافة. فتح باب عربته ثم أدار المحرك.

السابعة من صباح يوم بارد في تشرين. أخذ مساره المعتاد إلى المكتب وفي داخله هاجس مجهول الهوية خلق بوادر ارتباك وقلق يعي أنها علامات يوم ملتهب.

أول موظف يقابله هو سكرتير الشيخ "إقبال" أحد رجال الأعمال المعروفين.

ـ أهلاً.. أسامة.

ـ أهلاً أستاذ حامد.

دخل المكتب وأخذ يقلب بعض الأوراق.

ـ أستاذ حامد.. متى يتم تعميد المؤسسة بالعمل؟

ـ حين تصل موافقة الإدارة العامة.

ـ الحال متوقفة.

ـ ليه؟

ـ الشيخ مسافر منذ شهرين .. ولا أحد يصرف رواتبنا.

حديث اعتاد سماعه. أسامة كرر دعوته لتشريف المنزل بزيارة حان وقتها.

انتهى الدوام ذات الطريق. والقلق والتوتر استقبلته "نجوى" ضاحكة ثم طرحت أسئلتها المتكررة. تذكر أنه نسي الخبز واللبن، استلقى على ظهره أمام شاشة التلفزيون مشاركاً طفله ذا السنوات الأربع متابعة أفلام الرسوم المتحركة.

حدد السابعة مساء للزيارة وأخذ يتذكر العنوان. أوصل نجوى إلى منزل والدتها، اقترب من العنوان مع ارتفاع أذان العشاء. أسامة يقف في عرض الطريق ملوحاً له..

أوقف العربة.

سبقه إلى باب مشرع لشقة في الدور الأول، الهدوء مخيم ولجا غرفة جلوس مليئة بالدمى والرسوم ثم توقف عند صورة معلقة فوق التلفزيون.

لاحظ أسامة ذلك فقال:

ـ المدام ليلة الفرح.

ـ متى؟

جاءت ساذجة وصوت حركة في مكان آخر، غادر أسامة الغرفة ثم عاد يحمل طبقاً فيه بعض البسكويت والمكسرات.

ودخلت خلفه تحمل دلة القهوة بيد والفناجين باليد الأخرى، التفت إلى الصورة كانت هي.

تصبب العرق في داخله وهو يتناول فنجان القهوة بكف مرتعشة.

جلست..

استأذن أسامة. لم يحسب الوقت. شعر أنه تأخر. انتهى من شرب القهوة ليجد أمامه كوباً من عصير الليمون.

تطلع إلى ساعته ثم نهض وهي واقفة في فتحة الباب محاولة منعه من المغادرة، همهم بكلمات انبثق بعدها باب الشقة عن خلق كثير.

تذكر طفله.. وزوجته.

حضرت الشرطة. لكن أسامة أنكر معرفته.

ضابط المركز شعر بموقفه، فأمر الآخرين بمغادرة الغرفة، ودعاه إلى الجلوس بالقرب من المكتب منصتاً إليه.

طلب منه كتابة إقرار خطي بأقواله ودعا أسامة إلى إقفال ملف القضية، فتنازل عن الادعاء مع حفظ حقوقه من الاعتداء عليه.

ـ كيف وقعت؟

ـ إنه معرفة.. ويراجع المكتب في أعمال سيده.

ـ المهم كن حذراً.

غادر مركز الشرطة.

كانت "نجوى" قلقة بشأن ابنها. باب الشقة غير

مقفل. لا أحد هناك، اتجها إلى غرفة الطفل. الخادمة ترقد على الأرض وهو نائم في سريره.

سمع نجوى تصرخ منادية، كانت غرفة الجلوس خالية من التلفزيون وجهاز الفيديو والمسجل فأسرعا إلى غرفة النوم لكن لم يعثرا على علبة الحلي.

اتصل بالشرطة.

العطاء

لم أفكر في الأولاد حتى أخذت زينب وأطفالها إلى منزلنا الجديد حيث كان الصغار يركضون في الفناء بين علب الأصباغ وبقايا معدات البناء.

المكان أكبر من وجودي. أخذت الهواجس تلوب فلم أهتم بندائها ونداء زوجها وهما يغادران المبنى.

العاشرة صباحاً فُتح باب الفناء وهي تتلفع بالعباءة.

دخل أحد العمال ورائحة سيجارته تصلني ثم انتصب أمامي.

ـ آسف.

وعاد القهقرى، شيء فيه يتربص بي.

ـ أنا الكهربائي.

تذكرت أن راشد حريص على تمديدات الكهرباء ونوع الثريات.

لكن ها أنا هنا وهو ما زال في الفراش.

لم أنبس بكلمة.

ـ المعلم اختار نوعاً جيداً وجديداً.

ووجدت الشجاعة للحديث:

ـ نعم!

ـ لكن تحتاج إلى عمل جديد.

ـ الأستاذ.. سوف يكرمك.

فتح مجموعة علب ورفع إحدى الثريات واقترب حتى أتفحصها.

جهزت الإفطار وأخذت أنادي راشد، تذمر وأطل بشعره المنكوش من باب المطبخ. رحت أضحك وهو يحدق فيّ بحرد. تذكر أنه لا يلبس سروال البيجاما فاختفى ومعه استعدت ذكريات أربع سنوات من الزواج وعشر من العمل، استطعت خلالها برعاية والدي اقتطاع جزء من راتبي وشريت أرضاً، وبعد زواجي بثلاث سنوات ظهر اسم راشد في بيانات بنك التنمية العقارية فرع الرياض حيث تقدم بأوراق أرض يملكها قبل أن ينتقل إلى الطائف.

حولت صك الأرض باسمه حتى يستفيد من القرض مقابل تنازله عن أرض الرياض، وبعد إكمال المراجعات القانونية اكتمل المنزل.

زميلة في المدرسة شعرت بقلقي فأخذتني إلى طبيب تراجعه لمتابعة حملها في مستشفى خاص، وعند اكتمال الفحوص طلب الطبيب مني إحضار راشد.

انتهى شهر رمضان، فركبنا عربتنا وكان مسارنا الشمال. وصلنا إلى الأردن ثم سوريا وفي طريق العودة توقفت بنا العربة في معان. أقمنا عنوة في فندق متوسط الخدمات حتى يتم إصلاحها.

لم يقلقني تأخر راشد، بقضاء الوقت في مطعم الفندق والتجول بين المحلات التجارية المحيطة به.

شاركني المصعد رجل تفوح منه رائحة المشروب وقد أخرج من جيب بنطاله زجاجة صغيرة.

ـ تفضلي.

كان مطلبه مفاجئاً تناولتها وتجرعت قليلاً ليتوقف المصعد في الدور الذي أقصده. خرج معي وشاركني الاتجاه وعند باب الغرفة أمسك بكتفي:

ـ تفضلي نحن جيران.

فتح باب الغرفة الملاصقة وهو يعب بقية القنينة.

أدار التلفزيون الذي تنتصب عليه قنينة أخرى منتصفة فتناولتها متجرعة الباقي بهدوء. اختلطت الصور، استحضرت صورة راشد وهو يقف في فتحة باب المطبخ بقميص البيجاما فرحت أضحك.

كنت في الفراش منهكة وصداع تطرق معاوله رأسي. صحوت وحلقي جاف. فوق ثلاجة الغرفة لمحت وأنا أخرج قارورة الماء وورقة يبلغني فيها راشد بأن السيارة تم إصلاحها.

وأنا أجمع حاجياتنا جاء راشد يستعجلني.

خرجت وكان باب الغرفة المجاورة موارباً فدفعته.

قال راشد:

ـ إنها خالية.

ـ سمعت جلبة.

دخلت فوجدت قنينتي مشروب صغيرتين على طاولة التلفزيون.

موظف الاستقبال وهو يعد فاتورة الحساب كان بين لحظة وأخرى يحدق في تذكرته، كان رفيق المصعد.

الطريق الأسود يمتد أمامنا والصداع يتراكم في رأسي. حنيت جسمي على الباب ونمت. توقفنا في تبوك ودخلنا "موتيل" مسافرين فواصلت نومي حتى ينتهي راشد من تفقد السيارة.

أحضر نادل المطعم أطباق الطعام، كان هو موظف استقبال فندق معان ولديه شيء يشدني فهمست وهو يغادر الغرفة:

ـ هيثم.

قال راشد:

ـ من؟

ـ إنه موظف الاستقبال في الفندق.

ضحك راشد.

ـ هيثم هناك.. هذا عامل آسيوي.

أخذت أرقب الطريق وأتابع العربات التي نجتازها والتي تجتازنا. أخرج راشد زجاجة صغيرة من تحت المقعد ورماها على جانب الطريق. عرف أني شاهدت فعلته، فراح يعبث بمؤشر الراديو.

أقمنا احتفالاً حضره الأهل والأصدقاء. الصداع يعاودني، شعرت بدوار تلاشى وإحداهن تضمني مودعة وكفها تهصر كفي فيسري وهجها في داخلي.

الإرث

غير واقعية ومستحيلة قررت أن تكون قصة اللقاء القادم مع صديقاتي زميلات العمل ورباط الدم الذي يتم في الأسبوع الثالث من كل شهر.

ـ أخبرت زوجي بأني مدعوة مع إحداكن إلى حضور زواج صديقة في جدة، وعليه العناية بالأولاد ومساعدة الخادمة في إعدادهم للمدرسة.

مع غروب شمس ذلك اليوم طلبت منه السماح لي بالذهاب إلى منزل رفيقتي.

أوصلني السائق إلى السوق وفي تجوالي بغية شراء هدية العروس استطاع أحدهم أن يتسلل بين مرتادي المتجر ليقف إلى جواري فابتسمت.

لكن الانتصار دفعه إلى تسديد ثمن الهدية الذي يتجاوز المائة ريال، وفي الطريق إلى عربته عرف أنني أنوي السفر إلى جدة لزيارة قريبة ترقد في أحد المستشفيات، أبدى استعداده وقطعنا الطريق بحوار متواصل كانت تتخلله ملامسة عابرة من كفه يرتعش لها جسدي ووصلنا العاشرة ليلاً.

اقترح الإقامة في فندق حتى الصباح لأتمكن من زيارة المريضة، كان عليه أن يقدم بطاقته العائلية غير أنه رشا موظف الاستقبال الأجنبي بأنه نسي ذلك فاكتفى بالهوية الشخصية واستمارة السيارة.

تمدده في الفراش دفعني إلى الجلوس أمام التلفاز، ثم نهض ووقف خلفي يعبث بشعري وتتسلل أصابعه إلى صدري.

دخلت الحمّام ومكثت طويلاً وعرفت أنه غادر الغرفة لإحضار العشاء من مطعم قريب لتعذر تأمينه من الفندق.

لبست العباءة واحتضنت حقيبة يدي وتسللت من الغرفة تاركة لفافة الهدية، ولما تجاوزت بوابة الفندق لمحني شاب يقف بعربته أمام إشارة السير فتجاوز الإشارة وانعطف ليحاذيني.

اتجهنا إلى البحر وتوقف لشراء مثلجات وبليلة وبعد قليل من الوقت تجاوزنا الصمت وبين حراك مرتادي الشاطئ، أخبرته برغبتي في السفر إلى الطائف وكانت الساعة آنذاك الثانية بعد منتصف الليل، وفي الطريق هتكت عذريته.

انحفر اسمه ورقم هاتفه في وجداني حيث استحوذ علي جماله وصباه.

بين ضحكات الجميع بدت القصة خيالاً غير مألوف. ولأنني توقعت ذلك أخرجت من محفظتي صورتين الأولى

للرجل الذي تركته في الفندق والثانية للشاب الذي أعادني.

صرخت فاطمة.. وهي تتناول صورة الرجل:

ـ إنه زوجي.

فقلنا بصوت واحد:

ـ كيف؟

روت لنا زواجها السري بعد أن فقدت الأمل في العودة إلى زوجها وخشيتها إذا علم بزواجها أن يأخذ ابنتها.

واكتشفنا أن لسارة زوجاً سرياً وأن مريم قد تزوج عليها زوجها طلباً للأطفال، وأن رابعة هجرها زوجها لإصرارها على العمل وشكه في أنها على علاقة بآخر في قسم الرجال.

سرت القصة كشحنة كهرباء فينا فأخذنا نكشف خصوصياتنا ونحن نبكي لموقف ونضحك من تصرف عجيب حتى انتهت سهرتنا.

كلفت صاحبة الدعوة سائقها إيصالنا إلى منازلنا، كنت آخر واحدة فظل السائق واقفاً حتى دخلت الدار.

وما إن تمددت في الفراش حتى تنبه زوجي.

همهم:

ـ الحمد لله على السلامة!

التحمت به وقد بدأ يشخر فأصلحت المخدة تحت رأسه حتى يتوقف شخيره فأنام.

الغيل

قالت وهي ترفع طرف ثوبها عن ساق أدمنت حجارة الطريق وأغصان الأشجار الجافة فأدمتها:

ـ كيف نقف؟

كان اقتراح التوقف مني بعد أن سرى الوهن في أطرافي وأخذت ألوب كغيمة سوداء سدت المنافذ، لم أعد أبصر الطريق وأنفاسي تتلاحق رغماً عني.

قلت وأنا أستند إلى جذع شجرة جدباء بين أشجار تناثرت أغصانها في عبث على طريق سابلة مهجور:

ـ لقد تعبت.. وأخشى الضياع.

فعلاً كان الضياع فنحن منذ الصباح نمشي داخل هذه الغابة الملعونة، وخارطتنا ذكريات طفولة ومنزل يقبع أسفل الوادي هجره أهله.

ضحكت..

أخذت الأشجار تهتز لضحكها. وتذكرت الغيل الذي كان يمتد داخل الأحراش حتى حوض ماء مطلي بالجص.

صرخت:

ـ الغيل!

تلفتت حولها ثم أسبلت ثوبها ساترة الساق الجريحة وركضت فلحقت بها، وتوقفنا أمام آثار منزل متهدم اختفت أكثر معالمه.

لم تبق سوى حجار أسس الجدران.

وأخذت أبكي.

وإذا بيد تهزني وصوت يسأل. فتحت عيني وأخذت أحدق حولي فإذا بوجه زوجتي يطل قلقاً. أغلقت جفني وأنا أنقلب على الجنب الأيمن غير مهتم بنظرتها التي اعتدتها وهذا الحلم يراودني منذ ثلاثة أشهر.

مشاهده لا تتغير غير أن معالم المنزل تندثر والأشجار تزداد جفافاً والغابة تتسع الممرات بها ويزداد الغبار المتصاعد منها.

ذات ليلة كانت الرياح تعصف بالنوافذ والأغصان وزوجتي يزداد قلقها فهي لا ترتاح للريح الشديدة، وتتخيل حركة الأشياء جناً يترصد حتى ينفرد أحدهم بأحدنا.

لم أشعر بقلقها في هذه الليلة إذ نمت كما قالت؛ وتركتها أمام التلفاز تشاهد عرضاً مسرحياً، وفجأة انقطع التيار الكهربائي وصرخت مستنجدة، ولكن يداً سوداء كممت فاها.. وعندما أفاقت كانت في الفراش بجواري. أخذت تبكي هلعاً وهي تطوقني بذراعيها.

كنت في تلك اللحظة أعبث بالماء الذي تكون في الحوض وأمي تصرخ بي طالبة مني إحضار عيدان الحطب.

بينما عائشة تركض نحوي وقد رفعت طرف ثوبها، وساقها الجريح تحيط بها لفافة سوداء، إذ بغيمة سوداء تدهمنا وأمي تصرخ أن اركض وعائشة تمسك بيدي.. المنزل اختفى.

ارتفع صوتي.

وإذا بكف زوجتي تهزني وهي تضحك هذه المرة ونور يشع من جبينها..

ـ الحلم!

لم أرد، دفنت وجهي في صدرها وغرقت في عطرها ونمت.

اختفى الحلم وتهدل رأسي ولم أدرك أن التي احتوتني كانت عائشة.

نبهني من النوم صوت سيارة الجيران، تلفت حولي كان الفراش خالياً وزوجتي ترقد على الأرض في غرفة الجلوس فناديتها.

تأملتني ثم عادت إلى النوم، فارتديت ملابسي، وصلت إلى المكتب، والرياح الشديدة أثرها بارز في الشوارع، والزملاء يتحدثون عن حوادث متفرقة.

جدتي هي الوحيدة التي أتذكرها بشعرها الذهبي وثوبها الأسود الموشّى بخيوط القصب ورسوم حمراء.

ولكن نسيت اسمها كما ضاعت ملامح أشخاص أعرفهم منهم عائشة التي لا أذكر سوى اسمها ولا أدري هل حقاً كان اسمها أم أنه وهم، ففي داخلي شيء يرفض اسمي وحقيقة هذه الأسرة التي أكون.

قال أحد الزملاء: بعد صلاة عصر أمس وجدنا طفلاً في الرابعة في المسجد يبكي. تنبهت أستمع.

قال: أخذه إمام المسجد إلى منزله واتصل بالشرطة.. وقبل أن تصل سيارة الشرطة؛ كانت امرأة تدق الباب.

قلت

ـ وبعد..

لم يهتم الزميل بانفعالي بل غادر المكتب. فلحقت به لكنه اختفى بين الموظفين، وقد أنكر الجميع وجوده.

غادرت الإدارة والرياح الشديدة تعصف في الشوارع، فعبرت الشارع المؤدي إلى المنزل وصوت منبه سيارات الشرطة.. يرتفع.. يرتفع.

الحملة

توقف الركب عند مشارف المدينة. هاهي الطائف على يسار الطريق وقليل من الانحناء نحو اليمين يكون قرن المنازل ثم مكة المكرمة.

انفلت أحد رجال القافلة وابتعد قليلاً تاركاً للصبيان والنساء وبعض الرجال إقامة المخيم وإشعال النار وتوزيع الزاد على أفراد القافلة.

أخذ يتأمل الفضاء: إنها السابعة ليلاً وموعد صلاة العشاء يحل.

قرأ النجوم والهلال الذي وضح بعض الشيء متجاوزاً ندف السحب البيضاء التي مزقت زرقة السماء وسطوة البرد.

رائحة الأرض اختلفت وكذلك عطر الأعشاب، والتفت إلى الشمال، تخيل حضن ذلك الجبل الفاصل بين إقليمين من الأرض ولكن لم يستطع أن يكون حاجزاً بين الناس.

ـ إنها هناك.. تعاني..!

قال ذلك بصوت مرتعش وهو يبتهج لشهاب لمع فجأة وتجاوز نظره.

ـ من هي..؟

كان السؤال من رجل تعرف عليه في القافلة ثم افتقده أثناء إعداد الخيام وحين تلفت لمحه فاتجه نحوه.

ـ ابنتي.. هناك.

ـ وماذا جاء بها إلى هنا؟

ـ مع زوجها.

شعر بأن لحظة التأمل تم بترها فحرك خطواته نحو أفراد الحملة وانضم إلى الجالسين حول النار المتوهجة في حديث سمر.

نهض الجميع في ساعات الفجر الأولى، ولم يلاحظ أحد غيابه.

تحركت القافلة، مالت قليلاً نحو اليمين لتصل إلى مكة مع رفع أذان الظهر.

كان قائد الحملة يعرف الطريق ومقر إقامة المعتمرين إذ نسق ذلك مع مكتب ممثلي طوائف الحجاج.

وعند توزيع الغرف والأجنحة جاء اسمه ضمن قائمة التوزيع ولم يسمع صوته.

وزع المتاع في الغرف والأجنحة بعد أن أنزله عمال النظافة من العربات، وبقي فراشه مطوياً وكذلك حقيبته

الصغيرة السوداء أمام طاولة موظف الاستقبال في مدخل العمارة. أيضاً لم يلاحظ ذلك أحد.

توجه الجميع مع أذان المغرب إلى الحرم حيث تناثروا غير عابئين بالضياع يحدوهم إيمان مطلق.

وعادوا فرادى وجماعات إلى المسكن. حارس العمارة يقف في المدخل وبجواره الفراش المطوي والحقيبة السوداء، ينتظر أحدهم يمد يده لأخذها.

وطال وقوفه، عرف أن صاحبها لم يأت بعد، ولكي يتخلص من مسؤوليته دقق في كشوف أعضاء الرحلة وتوزيعهم على الغرف وأجنحة العمارة. كان عددهم محدوداً، وسهل ذلك فكرة طرق الأبواب والسؤال.

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عندما وصل إلى النهاية. أمام باب شقة موارب وقف فسمع حديثاً خافتاً فدفع الباب، خرج شاب لم يسود شاربه، وامرأة على وجهها غطاء أسود شفاف اختفى الشاب ووقفت المرأة، فسألها عن ضياع فراش وحقيبة من أغراضها، دعته إلى الدخول للتأكد. تفقدت متاعها ونفت ذلك.

ـ هل معك أحد؟

ـ نعم زوجي وأخوه.

ـ انهما يتسامران مع الآخرين.

ـ وأنت.. هل قاطعت سمرك؟

لم تجب ولحقت به لمعرفة نوع الفراش والشنطة لعلها تعرف لمن، دققت النظر.

ـ إنها لراشد.. ولكن..

لم يهتم الحارس بباقي الإجابة فمعرفتها أزال قلقه. أخذ يتأملها، نحيلة فيها بقية جمال مع تقدمها في العمر، وفي صوتها إصرار الاستيلاء على كل شيء في سبيل تحقيق نزواتها.

دخل غرفته التي يختفي بابها وراء طاولة الاستقبال ولوحة تعليق مفاتيح الغرف.

كانت وراءه، لمحها في المرآة المعلقة فوق مرقده فارتعد وسمع ارتعاشه بسبب الصمت المطبق.

اختفى الضوء.

سمع حركة ونداء تمطط في فراشه.

لا يذكر شيئاً. انتصب وراء طاولة الاستقبال،مازال الفراش المطوي والشنطة السوداء في مكانهما وقد صافحته وجوه الجميع.

تذكر راشد.. وتذكر المرأة التي كانت بدون وجه، ولا معالم لها.

أوقف أحدهم:

ـ هل تعرف راشد؟

ـ نعم.

ـ هل وصل معكم البارحة؟

ـ نعم.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ لماذا؟

ـ فراشه وشنطته في المدخل أمام مكتب الاستقبال.

وفي اليوم الثاني كان راشد في ساحة الكعبة، تحلق حوله بعض أفراد الحملة يتساءلون عن اختفائه.

ـ لقد وصلت الآن.

ـ ماذا؟

ـ تركتكم قبل تحرككم من المخيم.

ـ لماذا؟

ـ لأزور ابنتي في الطائف.

ـ ابنتك؟

ـ نعم.. لقد رزقت ولداً أسمته راشد.

تفرق الجمع وتركوه يكمل توسله وصلاته.

قال قائد الحملة:

ـ ولكني أعرف أن راشد وحيد.

ـ كيف؟

ـ لم يتزوج.. ولا أذكر أن له بنتاً.

ـ هل جُن؟

ـ سامحك الله إنه أعقل منك ومني ويعرف ربه.

ـ ولكن. .

ـ فعلاً وصلنا مكة بدونه..أترانا نسيناه..؟

تلفت البعض حولهم، اختفى راشد الذي أنهى صلاته واتجه إلى العمارة التي يقيم فيها رفاقه وطلب من عامل النظافة حمل فراشه وحقيبته، دفع باب غرفته، كان شريكه يرقد في فراشه، بدل إحرامه وتمدد في الفراش الآخر ونام.

المربوط

اعتذر عن حضور حفلة تخرج طلبة القسم النهائي بالكلية، كما هي عادته في الانزواء.

وكانت بديعة تترقب وصوله إلى المقهى فتأخذ في إشغال هاتفه النقال. ومع توافد الأصدقاء يعتذر.

هكذا اعتاد، حتى اختفت بديعة من حياته ومن أسرته، فقد توقف الاتصال المجهول المتكرر. كان ذلك منذ عشر سنوت.

ها هي تعود من خلال انتقال عمل زوجها إلى الطائف مدرساً في مركز التدريب المهني. لمح اسمها يتمدد بين شارع خالد بن الوليد وشارع عكاظ. محلات سباكة.. ملابس.. أدوات كهربائية، وعمال من جنسيات مختلفة.

ـ إنه أرشد.

ـ من؟

ـ أرشد الباكستاني.. أخته كانت زميلتي في المدرسة.

ـ ماذا به؟

ـ يبحث عن كفيل.

ـ وما دورنا؟

أخذ أرشد يدير أعمالها من خلال مكتب فخم في إحدى العمارات التجارية في شارع أبي بكر الصديق.

أخذ العمال الأجانب يتقلصون، والمحلات تقفل مع اشتداد حملة الجوازات ومندوبي التجارة.

كانت الحملة فاعلة ومؤثرة معها أخذ عبد الرحمن زوج بديعة يلاحق أعمال المحلات المغلقة ويسدد ديونها، الأمر الذي دفعه أن يطالب أرشد بأوراق المشترين والنشاط.

اختفى أرشد. ولم يعثر في المكتب على ما يؤكد صحة الإجراء المالي والحساب المكشوف.

لم تصدق بديعة الرصيد المالي الصفر لمحلاتها، فأخذت تراجع أوراقها، متهمة عبد الرحمن بالإهمال وعدم المسؤولية.

وذات ليلة جاء صوت أرشد يرجوها زيارة شقيقته. كرر الاتصال وأحضرت الخادمة صباحاً بعد مغادرة الزوج للعمل وأطفالها إلى المدرسة.

كانت الرسالة مجموعة صور تجمعها بأرشد بينها لقطات تكشف عريها، إنها لا تتذكر شيئاً.

ـ هل وصلت الصور؟

ـ نعم.

ـ والمطلوب؟

ـ مساعدتي على السفر.

بعد تدقيق مركز على الصور زارت شقيقة أرشد، ثم عادت إلى الصور.

بعد إعداد براد الشاي والجلوس أمام التلفزيون بجوار عبد الرحمن لمتابعة إحدى مباريات كأس العالم.

ـ هذه صور تهمك.

فوجئ بها تتناثر أمامه.

ـ كيف.. كيف؟

ـ دقق.

ـ هذا أنت؟

ـ نعم أنا.

ـ هذا الخال صناعي.

ـ طبيعي.

ـ طبيعي.

ـ هل أملك مثله.

وشرحت له طريقة وصول الصور وارتباطها باختفاء أرشد. أسرع الاثنان إلى إدارة الشرطة، قدم الصور لمدير المركز وشكوى، استدعيت شقيقة أرشد وزوجها، أخذت تستعرض الصور فلمح المحقق ارتعاش أطرافها، وطالب

بإحالتها إلى المستشفى لمقارنة جسدها بالصور العارية وسجن زوجها.

وقف زوجها معترضاً وقال:

ـ أرشد يختبئ في مستودعات الشركة.

ـ الشركة؟

ـ أجل أنا مهندس في شركة الكهرباء.

ألقي القبض على أرشد. أغلقت بديعة الهاتف لأن عبد الرحمن طلب قهوة لضيوفه.

توقف مترقباً. تطلع في ساعته.. بديعة جالسة أمامه تحدثه عن مؤسساتها لمنحها فرصة تنفيذ بعض أعمال إدارته.

دخل الموظفون لتوقيع نهاية الدوام في الدفتر الخاص بالعمل. اختفت بديعة، نهض من مكانه وتلمس المقعد المقابل الذي كان حاراً، أدخل نظارته الطبية في علبتها. أقفل درج المكتب وغادر الغرفة.

الخلاص.. والجذور الثابتة

كان رهان العمر. جاء جابر بخلاف توقعات المستقبل في صورة لا معالم لها. كسب جابر رضا الشيخ خاطر، معلم الصبيان السابق ورجل الأعمال.

لم تفلح دموعها في رد القضاء. ولم تفلح احتجاجاتها في غرفة تجهيز العروس في كسب جانب والدتها.

فكان أن مسحت دموعها. وحبست صراخها، زارعة ابتسامة صغيرة على وجهها الملطخ بالأصباغ لتواجه بصفير وشغب صديقاتها، الفرح يتسلل إلى أعماقها مع صوت المغنية.

جاء جابر ليجلس بجوارها. رائحته جعلتها تتكوم في الكرسي، تبادلت معه لبس محبسي الزواج أمام عدسات التصوير وتجرعت على مضض كأساً من عصير الرمان.

وما إن غادر قاعة الفرح حتى طوقتها صديقاتها وأخذن يتنافسن في الرقص على أنغام الفرقة الموسيقية، ووقفت لترقص وأمام سهام نظرات والدتها عادت وجلست.

غادرت القاعة. عربة جابر أمام باب النساء. انداحت دمعة فوق خدها وهي تردد دعاء والدتها المنتحبة لها بالتوفيق.

تراكمت الصور وهي تقلب صفحات عدد جديد من مجلة اعتادت اقتناءها. أشار المحرر إلى أن العدد يمثل تحدياً، لوجود الحوارات الجريئة والطرح المتجاوز، اعتادت أسرة التحرير تحمل مسؤوليتها أمام القضاء وزيارة رجال الشرطة.

هذا كاتب كبير ومسؤول قيادي من أسرة ثرية يضخم صورته في حوار مستفز غير عابئ بمسؤولياته القيادية، وهذا مغترب يتحدث عن سجناء الرأي في بلاده في حديث تبريري يتجاوز محاور أسئلة المحرر، وذاك شاعر يبحث عن الحرية في غرفة امرأة يعرفها، وتتوقف عند حوار محررة أزياء تخشى لبس الثوب القصير وتتحرج من مناقشة تصميم الملابس الداخلية.

ورن الهاتف كان المتحدث عابثاً فأغلقت السماعة. تكرر النداء وإذ بجابر يدخل ليرفع السماعة. طال الحديث وطلب منها إعداد العشاء.

جاء مولودها الأول ولداً. رأته انتصاراً لها ولما جاء جابر من السفر أخذها من منزل والدها وفي داخلها رعشة، وفي السيارة التفت نحوها.

ـ من أبو الولد؟

ـ أي ولد؟

وأشار إلى حجرها حيث ينام الصغير. رفعت الغطاء عن وجهها، يده المتيبسة على المقود ترتعش ووجهه برزت عظامه، وشفتاه ترتعشان. كان أصغر من حجمه الذي رفضته قبل سنوات ثلاث.

واصل جابر سفره. موكلاً خدمتها سائق يعمل في المؤسسة التي تحمل اسمه، وعرفت أنه يحمل نسخة من مفاتيح الدار عندما وجدته يرتب الخضار التي أوصته أن يشتريها في المطبخ. جابر يزداد ابتعاداً والسائق يقترب أكثر بلكنته الأعجمية.

تقرأ بعض النصوص الشعرية. تقارن بين الرسوم والصور الفوتوغرافية، عنوان إحدى القصائد «مريم تقرأ شعري» لشاعر مجده المحرر. فاستعادت أبيات القصيدة لارتباط النص باسمها وحدقت في الصورة المرافقة، كان جابر بمظهره المقزز، أخذت تدعك عينيها وتمسح بأصابعها الصورة .

سمعت مزلاج الباب يتحرك ووقع خطوات. صوت جابر يصلها وهو يدخل ومعه السائق. غادرت الغرفة يلاحقها صوت جابر:

ـ إلى أين يا خائنة؟

تسمرت في مكانها. جرس الباب يقرع، ثلاثة من رجال الشرطة يدخلون، صوت جابر يرتفع، أمها تصفعها على وجهها، تلبسها العباءة وتحمل الطفل، بينما عربة أخيها أمام المدخل.

مكيدة من جابر. إثر شكه في نسب الطفل الذي قدم بعد انتظار، اتهمها بالخيانة وتنازل عن القضية لقاء مبلغ دفعه والدها.

تجاوزت «مريم تقرأ شعري».. إلى صفحات أخرى. منها صفحة بعنوان «سطور من أوراق امرأة» حيث الأحداث تتشابه، جابر آخر أدمن المخدرات فأطلق الرصاص على زوجته الجميلة بعد أن ساومه أصدقاؤه عليها حتى ينتصر على صراعه الداخلي.

فأخذت تبكي وإذا بكف حانية تربت على رأسها. كان والدها الذي جاء متأخراً.

ـ هذا ملف بعض أعمال الشركة راجعيه.

ـ أنا؟

ـ أجل.. حتى أختبر قدرة مساعدتي.

أكملت «سطور من أوراق امرأة» لتكتشف بعد عودتها إلى حوار الكاتب أن شيئاً فيه يدفعها إلى عدم تصديقه، وأنه يستحق الشفقة وأن شيئاً من الدهاء في نظرته، احمر

وجهها فأغمضت جفنيها، تراه يجردها من ملابسها. سحبت الغطاء على جسدها؛ الصغير في فراشه يتحرك.

المرأة وقود كتاباتي، توقفت عند هذه الجملة من الحوار. تأملت الصغير وهي تغادر الغرفة بهدوء، شقيقها إبراهيم يجلس أمام التلفزيون يتابع مباراة في كرة القدم فجلست بجواره.

المــرأة

توقفت سيارة الأجرة ذات اللون الأصفر بالقرب من الرصيف وترجل السائق العجوز فلمح كرتوناً وحقيبة كبيرة أمام السيدة الواقفة على الرصيف وابنها الذي لم يتجاوز العاشرة، فتح شنطة السيارة ودس فيها الكرتون والحقيبة بينما ركبت المرأة في المقعد الخلفي والطفل في المقعد المجاور للسائق.

انطلق بهدوء مغادراً السوق المركزي وأخذ يحاور الطفل حتى يعرف اتجاهه، كانت المرأة ترد على كل سؤال يتلعثم الطفل في الإجابة عنه.

في مثل هذه الساعة من الليل تكتظ الطرق والشوارع بالراجلة والعربات، حيث تغلق المحلات لتأدية صلاة العشاء، ويعود معظم مرتادي الأسواق وأصحاب العمل إلى دورهم.

تلفت السائق العجوز باحثاً عن منفذ للهروب من اختناق الطريق فلمح وجه الراكبة في المرآة الأمامية، بهره جمالها ولمح مسحة حزن وشرود في نظرتها وحاول أن يوجد شبهاً بينها وبين الطفل الجالس بقربه.

فتح راديو العربة، كان المذيع يروي بعض أحاديث الرسول التي قطعها فجأة مع ارتفاع صوت المؤذن بالإقامة، دخل في عدد من الشوارع الخلفية حتى يصل إلى حي الروضة، كما استخلص من إجابة المرأة.

أخذ إمام المسجد الحرام صاحب الصوت الشجي في قراءة الفاتحة وما إن انتهى منها حتى أخذت المرأة في البكاء، التفت نحوها وأمام نظرتها انكسر وعاد إلى مراقبة الطريق.

أخذ الطفل يردد مع الإمام الآيات، والسيارة تدخل أول شارع في حي الروضة، ولمح المسجد الكبير القابع في وسط الحي إذ كان المصلون يغادرونه. تجاوز المسجد فصرخ به الطفل (هنا)، كانت أصابع الطفل تتجه نحو لوحة بقالة مضاءة مازالت مغلقه بسبب الصلاة فتوقفت العربة.

قال الطفل: إلى الأمام قليلاً.. هناك وأشار إلى باب لونه داكن، أوقف العربة وترجل ثم اتجه إلى الشنطة حيث فتحها وأخرج الكرتون والحقيبة.

وزرعها فوق الرصيف لصق الباب، ترجل الطفل وأخرج من جيب ثوبه عشرة ريالات أجرة المشوار.

عاد السائق إلى مقعده دون أن يدير محرك السيارة منتظراً المرأة لتترجل.

أقبل رجل عجوز من نهاية الطريق فركض الطفل نحوه، حمل الرجل الحقيبة وسحب الطفل الكرتون ودخلا الدار وأغلقا الباب.

التفت السائق إلى الخلف، كان المقعد خالياً فدعك عينيه، وداخله شيء من الخوف. مرر كفه على جلد المقعد، ثم أدار محرك العربة وغادر المكان.

لمح في المرآة الجانبية عباءة سوداء مكومة على الرصيف فعاد من طريق آخر للتأكد من ذلك، فوجد المحلات التجارية مفتوحة والبقالة المغلقة تعج بالمتسوقين.

اليتيم

جاء صوت أخيه آمراً. فكان أن ذهب رغم أنفه إلى منزل الأستاذ عبد العزيز للقيام بخدمته وخدمة والدته وزوجته وطفلهما الرضيع.

لم يكن يتجاوز الثالثة عشرة. نحيل الجسد، ارتبط بالفاقة واليتم منذ سنته الثانية، يعيش متنقلاً بين منزل أخيه وأمه المتزوجة، ومع هذه الظروف كان ناجحاً في دراسته متفوقاً على أقرانه.

بينما كان يصب القهوة ذات ليلة لحظ مدرس الفقه الضرير بين الحضور. ارتبك ولم يهتم بالأمر، وأدرك أن المدرس شم رائحته وسوف يفضحه في الفصل بين زملائه بأنه خادم في منزل أحد الوجهاء.

ورافق آخر الضيوف إلى منزله في حي آخر لإحضار العدد الأول من صحيفة يومية جديدة، كانت الساعة العاشرة من ليلة شتائية هجر المارة فيها الطرقات، عاد يمشي وحيداً عبر طريق طويل فوجد عبد العزيز مندساً في فراشه.

استقبلته الوالدة بعطف وخوف. لفت حول جسده البارد بطانيتها ودعته إلى الجلوس أمام المدفأة في غرفتها.

تنبه إلى صوت الزوجة التي وقفت فوق رأسه بثوب نومها الشفاف. وهو يدعك عينيه متفحصاً ألقت في حضنه زوج جوارب.. طالبة منه غسلها بسرعة.

دعك الجوارب بيديه ثم عقدها حول حبل غسيل ممتد في فناء الدار. ثم أخذ يداعب الطفل الذي أقبل نحوه في عربة تساعده على المشي.

ارتفع صوت شجار من داخل الدار بين المرأتين. تلفت حوله، طبع قبلة على جبين الصغير وخرج.

الباشق

تلبسني الخوف وما زال الطريق طـويلاً، أتجاوز السابلة الواحد تلو الآخر، تصطدم نظراتي الشاردة ببعضهم فـأرسم ابتسامة صغيرة وصـفراء على وجهي. قلق ساورني بأنها لن تأتـي. كانت تبكي عبر الهاتف تعودت ذلك منها، فهي تشكو قسوة الحياة والألم الذي نخر جسدها.

لم تذكر والدها بكلمة طيبة أو سـيئة. كان حديثها عن أمها وإخوانها وزوجها وذكريات ربطتها به. كان اللقـاء الأول أمام لوحة رسمتها للمشاركة بها في مسابقة فنية وزع فيـها إعجابـه ونظراته بينها وبين والدتها التي حضرت معها.

لم يتـوقف أمـرها عنـد الإعجاب وتشجيع مواهبها المتعددة بل تجاوز كل الخطوط الحمراء حيث معها فقدت حـريتي ووجودي.

دخلـت المسجد، تلفت حولي، صليت ركعتين تحيّةً للمسجد الذي دخلته من بوابته الجنوبية. عرفتها من خلال وجوه إخوتها ووالدها العجوز، أخذت أحـاورها وداخلـي

يبكي، تكومت بجوار أحد الأعمدة أثرثر وقد تجاوزني المصلون. لم يلحظني أحـد. كنـت شاخص العينين خفت صوتي وتقطع تنفسي، حاولت النـهوض فلم أتمكـن. أخرجـت صورتها من جيبي وأطبقت عليها بيدي بقوة وأنا ألفظ نفسي الأخير.

النسخة الأولى

بولهٍ أخذ يمزق المظروف وقد برز الغلاف الموسوم بصورتها. هو النسخة الأولى من كتابه الجديد.

ما إن فتح الغلاف حتى أحس بوخز في باطن كفه اليمنى. أعاد إطباق الغلاف كانت صورة عواطف تتموج غائمة بأطراف مدببة.

وقع الكتاب على الأرض. أخذت الحروف تنسل متناثرة ومع اندهاشه انفتح باب الغرفة وارتفع صرير مزلاج النافذة لتنفتح على مصراعيها.

ثم امتد خط من الأحرف ومن أوراق الكتاب إلى عنان السماء.

ملابس سوداء

كم أنت غبي! تقرير مفاجئ أوقفت معه تأملي وتوقفت عن مغادرة الغرفة. هكذا تخيلتها عبر الهاتف. كان الاتصال مني للسؤال عن شقيقها، وتقديم المواساة في وفاة زوجها.

قررت زيارتها في اليوم التالي. كانت هي كما اعتدت المجيب على الهاتف قلت بدون مقدمات سوف أحضر وأغلقت الهاتف. الساعة الواحدة بعد الظهر فتحت الخادمة الباب وأخذتني إلى غرفة الجلوس، جاءت بملابسها السوداء، ما إن التقت نظراتنا حتى ابتسمت فنهضت ومددت لها يدي وسحبتها نحوي زارعاً قبلة سريعة على أرنبة أنفها، تراجعت وجلست دون أن نتحدث كثيراً.

بعد شرب القهوة نهضت. لم تقترب، مددت يدي مودعاً فلم تحتفل بها بل سبقتني إلى باب الغرفة. أخذت أدقق النظر فيها وأنا أسير خلفها، فتحت الباب الخارجي تاركة لي حيزاً صغيراً حتى أعبر وابتلعني الشارع.

مجنون أبحر

(1)

قـالت وهي تركض نحو البحر: لن أعود. لم يعثر خفر السواحل أو رجال البحر على جثتها. ونعته مرتادو شاطئ أبحر بالمجنون، ما زالت خيمتهم منصوبة وطفله الذي كان فـي عامه الأول حين اختفت يقيم عند شقيقته التي تزوره عنـدما تأتي إلى جدة للتسوق.

(2)

فـي مساء يـوم الخميس بينما كان يـرمق الأفق، والطفل الذي صار في الرابعة من عمره يداعب رمل الشاطئ، انبثقت متجلية من البحر. ضمـت الطفل إلى صدرها ورمقته بنظرة حزن وعادت تخوّض في البحر، فنهض من مقعده ولحق بها.

(3)

ترجلت أختـه من العربة ثم دارت حول الخيمة. لا يوجد أحد، أخذت تمسح الشاطئ بنظـراتها. كان البحر رغم قلقها ساكناً والناس حولها يملأهم الانشغال، نبهها صوت جاء من خلفها فتركت لفافة كانت تحملها بجوار الخيمة، أمسكت بيد الطفل وغادرت المكان.

النجاح

أخذت تركض في أرجاء الدار. نجحت أخيراً؛ لم تفكر في نسبة التقدير، كان همها اجتياز عقبة فشلت في تخطيها خمس مرات، ولما شعرت بالتعب دخلت غرفتها ونامت.

أقلق تأخرها الجميع. أسرعت أمها وإحدى أخواتها، استقبلتهما رائحة عبقة وابتسامة صغيرة.

هزتها أختها كانت متصلبة وباردة. لقد أسلمت الروح منذ كان انتصارها.

المدرج

بسبب الفراغ شعر بالاختناق. فأخذ طفله وتوجه بسيارته إلى المدينة الرياضية، الأضواء تملأ المكان وصوت الرعد ومذيع يعلن نتائج المتسابقين.

جلس في آخر المدرج الجنوبي يراقب الناس والألعاب. أخذ الطفل يتنقل بين المقاعد الفارغة والحاجز الحديدي الذي يحمي الملعب. وفي الثامنة شعر الطفل بالتعب فصعد المدرج وجلس بجوار والده.

في العاشرة لاحظ أحد رجال الأمن الطفل ووالده. كان الطفل نائماً والرجل جثة هامدة.

المواجهة

أنت.. صرخت في وجهه. بعد أن أغلق باب الدار وأصبح في مواجهتها ولم يعد أمامه طريق للعودة.

ـ نعم.

ـ أين كنت؟

تأملها بحرد وهو يحاول كظم غيظه. حبس ثورة تعتمل في داخله ما زالت تتفاعل منذ أيام عندما تأكد أنها تأخذ الفلوس خلسة من جيب ثوبه دون إذن.

ـ كنت في العمل.

ـ حتى آخر النهار؟

إنه يقضي معظم يومه خارج الدار. ليس هرباً إنما خشية المواجهة إذ أعياه الترحال والوحدة والغربة، ووجدها سكناً هادئاً وحقيقة يبحث عنها.

لم تطل ملاحقته حتى غدت زوجه. وأصبح الرجل الذي بحثت عنه في المحطات المهجورة.

ـ ودارك؟

ـ أنت.

لم ترد عليه، أخذت طريقها إلى المطبخ. نظره يتابعها إنها ذات جمال آسر. مازال يعشقها، هم باللحاق بها ودغدغة مؤخرتها.

وإذا بطفليه يسرعان متسابقين لضمه والفوز بقبلاته التي لم تكن لهما ذات يوم.

وجه

الطابور طويل ذو ثلاثة مسارات. كنت أقف في المسار الأول بينما هو يقف في المسار الثاني. تقدمنا ومع بطئه كان منسجماً مما أعطانا فرصة المناقشة؛ أما المسار الثالث فكان أسرع تأكدت من ذلك وأنا ألحظ وجهاً غاب اسمه يتكرر.

انتقلت إلى المسار الثالث وتجاوزت صديقي ووقفت أمام النافذة. الموظف ذو وجه يتكون من قسمين؛ الأول جزء من الوجه الذي تكرر، والجزء الثاني بعض ملامح وجه الصديق الواقف في المسار الثاني.

سددت القسط التاسع من قرض بنك التسليف العقاري وخرجت. رجل السير بجوار سيارتي فاقتربت وجلاً، فتحت الباب، أدرت المحرك فابتسم وهو يتجاوزني. على ظهره صورة وجه قسم منه يحمل وجه صديقي وقسم آخر يحمل الوجه المتكرر.

العجوز

تعمقت في داخلي صورة العجوز الذي كان جالساً أمام باب المسجد يبكي. فتصاعدت الغصة في صدري.

تذكرت أني يومذاك تجاوزته بدون مبالاة. ركضت عندما تعالت زفراته نحو عربتي وغادرت المكان.

الطرقات مزدحمة وأناس يتحركون أمامي وقد اختفت ملامحهم. شيء في ذاتي يتربص بي وعند مدخل المقهى كان اللقاء.

دعوته إلى مشاركتي في مجلسي. أمرت النادل بإحضار شيشة أخرى كنت: أنا..وكان: أنا.

غمغم النادل وهو يثبت رأس الشيشة بكلمات مبهمة وغادرني. تشعب حديثنا.

قال: أغصان المكان إليك.

قلت: ماذا؟

رغم مرارتي.. نهض..

ترك الغصة تتصاعد في داخلي.فالعجوز يقف في المكان يطلب صدقة. يرجو إحساناً إنه ذاك الزمن وهذا المكان.

البديل

أخذ يحدق في المارة يتأملهم بإصرار متناه. بينما أصابع يده اليسرى تقوم بنتف شعيرات ذقنه التي لم يحلقها منذ عشرة أيام.

وفي لحظة انجراف لا يدري أحد كيف كان. قفز من مكانه فوق الرصيف إلى اسفلت الطريق العام، لتسحقه عربة شحن أمام عيون الجميع ويتوقف تصوير المشهد ويتكوم المشاهدون.

يتقدم أحدهم لمساعدته على النهوض من مكانه. لكنه يرفض اليد الممدودة ويغادر المكان في صمت وخيلاء.

توهج

اشتعلت النار في العربات المصطدمة. وأخذ الناس في سحب من في داخلها، وقبل أن يتمكن الجمع من إخراجي تفجر كل شيء.

النيران تطوقني من كل مكان. أخذت أتوهج وقد ارتسمت على وجهي ابتسامة صغيرة.

بوح

قالت وهي تصلح الغطاء على وجهها: منذ زمن أشعر بالحزن. لقد توقف مرجل الحب في أعماقه، فأخذ ينفر من مواعيدي؛ يتهرب من استقرارنا الموعود.

قالت وقد أصبح وجهها قطعة من السواد: إنه يرتكب الأخطاء كل يوم ومع تجاوزي ذلك أخذ ذات يوم يبكي حتى تلاشى، أصبح ذرات حاولت جمعها لكن هبت الرياح ولم أتمكن من جمع سوى بقايا.

السكين

نثر حياته في دواخلها حتى توقف نبضه. وأدركت أنها خاطئة، انزوت في أحد أركان سطح الدار وأخذت تمزق شرايينها بسكين حاد.

صرخ طفل وهو يرى شيئاً أحمر ينداح من مزراب السطح. ركض الجميع، أخذت تتمتم بشيء، التقت نظراتهم نظرتها المنطفئة وكان بكاء الصمت!

الإسفلت

توقف عند خطوط عبور المشاة لامرأة وثلاثة أطفال. اجتاز الثلاثة الإسفلت وارتقوا الرصيف.

أما هي فقد دهمتها سيارة لا تعرف الانتظار. لم يتوقف قائدها حتى صدم عمود الإضاءة، الفجيعة كانت فوق احتماله فتوقف قلبه.

هتاف لحظة مبهمة

تدانت الأشياء حتى لم يعد الحرام بيّناً. إذ قدر لنا دخول مجلس السيد عبد الباري، الساعة العاشرة صباحاً عنّ لي استشارته في قَسَمٍ صدر عني عقب ثورة غضب على زوجتي.

وقفت على باب مكتبه الخاص الذي يحتل جزءاً من الدور الأول من بناية متعددة الأدوار يحتلها مع أولاده وشقيقته الأرملة الوحيدة.

قرعت الباب فسمعت صوتاً نسائياً يأذن بالدخول. جلست في غرفة الاستقبال التي أعرف.

حولي أصوات متناثرة وأنين مكنسة كهرباء. أخذت أترصدها وهي تقترب، خرجت المكنسة وخلفها خادمة هالني جمالها، لم تهتم الخادمة بنظراتي فاستمرت في عملها ولحق بها رجل يحمل كيس نفايات تدلى بين يديه تتبعه أخرى سمراء اللون بكيس أصغر حجماً.

ـ تفضل.

كان صوت امرأة أعرفها . وهي تضع على الطاولة

أمامي فنجان قهوة وتغادرني، دخل السيد عبد الباري مرحباً بي. ألقى حقيبته الجلدية التي ترافقه في كل مكان، تبادلنا أطراف الحديث وعرف أسباب زيارتي وانتقلنا الى غرفة المكتب التي تعج بالكتب.

ارتفع صوته منادياً.

ـ نسيم.. نسيم..

دخلت الخادمة السمراء.

ـ نعم بابا.

ـ أنت نسيم؟

ودخل نسيم.

ـ هل أحضرت طلبات البيت؟

ـ شوي بابا.

ـ هل وصلت عمتك إلى السوق؟

ـ قالت شوي.

فسر السيد مشكلتي وبسط أثر القَسَم الذي جاء في صيغة حلف ولم يكن يعني المعنى الذي يحمله. ووصلت إلى متجري فجلست خلف مكتبي أتابع سير العمل.

ـ ما شاء الله!

إنه صوتها بعد أن رفعت الغطاء عن وجهها.

ـ أهلاً عمتي.

تلفت وجلاً ووقفت احتراماً لها. مدت كفها فالتقت

كفّانا وعيناي مطرقتان، سرت ابتسامة صغيرة على محياها، رفعت بصري وهي تغادرني.

في الحادية عشرة ليلاً. كنت أقف على باب المكتب، فتحت خادمة الباب وسبقتني إلى غرفة الجلوس.

لم يطل مكوثي كانت هي . خالطني انبهار فأخذت أتذكرها، كنت في رحلة إلى القاهرة وكانت مطربة شابة.

ـ نسرين؟

ـ نعم.

غادرت الدار مع انبثاق أول الفجر. ذنب في داخلي منعني من الاقتراب، عرفت أنها الزوجة الثانية وهناك ثالثة وكل واحدة لها حياتها بينما السيد غارق في قضاياه وبين خادماته وسائقه.

صوت السيد في الهاتف يعاتبني على انقطاعي . طال الحديث يذكرني بحفل الجماعة الخيرة، طال الحفل كان السيد ضيف الشرف وخرجنا معاً ركبت عربته الفارهة وطلبت من السائق إيصالي إلى داري.

ونحن ندخل الشارع الذي أسكن قال لي:

ـ طلقت نسرين.

فاجأني بوحه.

ـ من .. من..؟

ـ زوجتي الثانية.

ـ والأولاد؟

ـ لم أرزق منها مع أننا متزوجان منذ خمس سنوات.

وقفت أتابع العربة وهي تتوغل في الشارع وقد اختفت معالم السيد داخلها. أخذت أسير على قدمي متجاوزاً باب الدار، الهواء البارد لفحني ونظرات أصحاب السيارات ترصدني، وهم في داخلي ينقشع؛ فأفك أزرار ثوبي لأتنفس بهدوء وفي الفضاء يتكون شبح من السحب وصوت أعرفه يغني.

الشـحاذ

تناثرت الرواء فقد حاسة الاستماع ففي داخله فراغ رهيب، جاء من خليط حلم وزعه بحدب في قصصه التي شمخت بأسماء شخصياتها المنزوعة من زحام المدينة ونداء نادل المقهى الذي يأتي إليه بجوعه وينشد عنده الأمن والطمأنينة.

فضاء الصحراء يمتص رغبته في إتقان دوره وهو يلعب الورق لإزجاء الوقت ونسيان سؤال ملح جاء يقتحم السكون الذي اعتاده مع نفوس شرهت وأخرى جاعت.

- لماذا ترددت في البيع؟

لم يكن محضّراً نفسه للحوار خاصة وأن حوله أفراداً لا يجد فيهم ما يقنعه لبدء نقاش يستهل به يوماً حيث انتهى يوم آخر.

فكر في تبديل المكان ومعايشة مرحلة جديدة، تذكر أنه كتب رسالة أولى وثانية.

غير أنه وجد في صندوق بريده نسخاً من كتاب طبعه في

بيروت قبل ثلاثة أعوام، ضاعت نسخه التي أرسلها الناشر وهي في الطريق إليه.

لحظة الانتقال لم تتبلور وإن كانت أيامه الأخيرة خالية من الألم.

ارتباطه بالمكان جاء كحاجز من الإسمنت، هناك أوراقه وكتبه موزعة حوله في صمت رهيب.

اليوم أرسل الرسالة الثالثة لكن هل يأتي جواب الموافقة؟ يريد الأمن الاجتماعي، فقط يراه أمراً ملحاً لزوجته التي شاركته لحظة الصفر والقبول باللحظة القائمة التي لم تعد تعنيه حالياً.

الثانية عشرة ليلاً. دقائق ويتغير التاريخ، يأتي الرقم تسعة بعد دقائق ليوم جديد يبحث عنه. شعر أسامة بالإرهاق، تذكر أنه يشحذ الوقت فترك القلم جانباً، وتمدد حيث يجلس على الأرض أمام التلفزيون.

أبواب الغرف مغلقة وكلهم ينتظرون صوته وماذا جد في انتقاله وإلى أي نقطة وصل لتحقيق الأمن الذي يبحث عنه الجميع.

شعر بألم خاصرته وفي جانبه الأيسر، أخذت ساقه تتقلص وأصابع قدمه اليسرى تختفي، إنه يلتهم أطرافه، الأصوات تصله عبر جدران المنزل الخالي إلا منه.

كان بعد ثلاثة أيام شاخص النظر وبجواره قصة لم

تكتمل، وصوت قلم يكتب شهادة وفاته، التي كانت في الثانية عشرة والدقيقة العشرين في المكان الذي نزح منه الجميع ولم يحتمل مغادرته.

تذكر أن نعيه جاء فيه إن موته بسبب أزمة مفاجئة، وتذكر أن أحد الجيران بعد صلاة العصر وعده بمشتر للدار.

وتذكر أن ناديه الرياضي المفضل ليلة موته هزم في الدقائق الأخيرة من الشوط الثاني للمباراة. وتذكر أن الهاتف منذ غادره الجميع لم يرن.

وأن الرد على رسائله تأخر لأنه لم يدرس طريقة كتابة عرائض الاسترحام، رغم مؤلفاته التي كان يتوسد نسخها عندما حمله اثنان من موظفي الهلال الأحمر على نقالة سيارة الإسعاف التي جاءت لتنقله إلى القبر.

السنديـانة

ماذا تعرف عن الألم الذي يظهر إذا تعاظم الفراغ، وغدت الوحدة هاجساً يتمثل في صورة ضاعت ملامحها، وإطارها الذهبي ملطخ ببقايا ذباب وحشرات طائرة لا تعرف الزمن والمكان.

(اليوم سافر إني أنتظرك).

بعد اتصال هاتفي، نسيت مناسبته تجاوز الأشهر الستة هاهي من لا أعرف منها سوى صوتها تطلب مني الحضور.

(فلما حانت الساعة العاشرة ليلاً كنت أطرق الباب).

بين الاتصال والموعد جاء الألم وأخذ صداع رهيب يسرق الهدوء الذي أخذت أعتاده منذ عدت وحيداً وقد تخلى الجميع عني.

(قالت: أتراني أجمل وقد صبغت شعري؟).

تذكرت أني لا أعرف لون شعرها وكيف كان، لا أعرف منها سوى صوتها.

(أخذت تلهث مثل فرس في حلبة السباق).

الوجع جاء كإشارة تحذيرية. بعض صبر ينفع أحياناً بعد أن أصبح من العسير رسم خطوط درجة الوعي باللحظة التي شلت عندما اشتد القلق على ما أنا فيه الآن.

(في السابعة صباحاً ودعتني عند الباب، كان شعرها الذهبي يرقص منتشياً على الجبين) كصبية يلعبون على سطح البحر، أخذت أضحك وأنا أقوض عصابة حمراء طوقت بها شعرها الذهبي القصير الذي تناثرت منه خصلة على جبينها واستدعى انتباهي صمتها وتجلد قسمات وجهها.

(دفنت في كفي شيئاً ناعماً دسسته في جيبي).

وأنا أدير محرك العربة أخذت أستوعب الموقف، غير أني لم أتمكن من تحديد لون عينيها وحتى الشعر، وتوقف العقل الباطن عن العمل بعد اكتشافي عدم قدرتي على رسم ذلك الوجه الذي برز بدون معالم، وها أنا أحكم عليه بالطريقة نفسها التي قد أحكم بها على قطعة خشب.

(تذكرت هذا، وأنا خلف مكتبي في العمل).

كانت الأدلة السابقة عقلية تقوم على الارتباط المتداعي حتى انثيال الشاهق في دلالات إشارية تخرج عن مجال السؤال الذي جاء بعد أن بارك الجميع هذا اليوم وذلك المكان.

(أخرجت اللفافة الناعمة، كانت منديل ورق أبيض

يضم قنينة عطر صغيرة مما تهدى كعينة وورقة نقد من مئة ريال).

وأتمادى قليلاً مشدداً على الملامح، فكان من الصعب كتابة حالة قطعها مراجع شغلني بإنجاز أوراقه.

هبة النسيم

تراكم الألم في داخلها بعد وفاته مخلفاً طفلين في عمر الزهور. لم تجد مكاناً لها في الدار من خلال شعورها بأن والدته وإخوته سوف ينتزعون طفليها منها فاستقر بها المقام في بيت والدها القديم.

أعادت اللحمة القديمة مع من تبقى في الحي. وأخذت تكفل معاشها من خبرتها في خياطة الملابس وصناعة البراقع والرقع الواقية من لذع النار للدلال وأباريق الشاي. وفي نظرات الطفلين وهما يريان أعمامهما وأبناءهم أثناء زيارتهم، تشعر بغصة الفارق الاجتماعي، ولكن مساندة والدها لها جعلها تكابر وتقتحم عالم الأدوية الشعبية، إضافة إلى جهودها في الخياطة، ولم يعد المنزل مكاناً مناسباً لتجارتها.

شاركت البائعات مباسطهم في مواقف السيارات شرق السوق المركزي. تغادر الدار مع خروج الطفلين إلى المدرسة وتعود مع أذان الظهر. لفت النظر رشاقتها وصغر سنها، ولكنها قاومت نداء الطبيعة.

كرت الأيام ففقدت والدها وحاول إخوتها بيع المنزل فاعترضت والدتها. شعرت بأن هناك حارساً خفياً يقف معها ويبارك خطواتها فاستطاعت وهي تمرّض والدتها شراء نصيب إخوتها في الدار.

نداء الطبيعة يجف في داخلها. هذه المرة أوصلها إلى مرحلة الرعشة التي فجرت سنين الجفاف، جمعت أغراضها وغادرت المبسط. كان ينتظرها، عربته خلف رتل من السيارات شيء فيه حفزها على الانسياق .

جاء مندوب البلدية مهدداً بالطرد فكانت من واجه إنذاره. طالبتها جاراتها بالتضحية فأصبحت المباسط تحت سيطرتها وتنامت تجارتها بعد أن أخذت البلدية جزءاً من الدار فاقتنت آخر في شمال المدينة وساعدها إخوتها على تحويل الجزء المتبقي من الدار إلى محلات تجارية.

أطل من بين مجموعة الصور المختزنة في الذاكرة. تذكرت أنه اختفى بعد أن كان اللقاء الأول، دب في داخلها حنين غريب هو من أشعل جذوة الحياة، كان رفيقاً لم يشعرها بانتصاره وإن أدركت أنه أحدث في داخلها شرخاً، أحست بهوله وهي تترجل من عربته في ذلك اليوم.

ـ هل تقبلين بي زوجاً؟

ـ من؟

وتذكرت الصوت المنساب عبر الهاتف.

ـ علمت أخيراً بوفاة والدتك.

ـ جزاك الله كل خير.

ـ لم تبارح صورتك ذهني.

ـ واليوم.

ـ بحثت عنك وها أنا...

لم تغلق الهاتف ولم تستوعب الموقف. اعتذر وأقفل الاتصال فجلست أمام المرآة تحدق في صورتها. دخلت غرفة ابنيها تقلب صورهما ودفاترهما المتناثرة، الفيديو المسجل التلفزيون، كانت توفر كل مطالبهما وها هما يتركانها وحيدة لقضاء الوقت مع أبناء عمومتها.

جاء صوته عبر الهاتف، شجعته على قول الكثير وقد عرفت أنه تنقل بحثاً عن وجوده وهاهو يعود وقد عثر على ذاته. ركبت في عربته التي توقفت أمام باب المنزل غير مبالية بما يقال، اتجها إلى المحكمة حيث قدمت للقاضي صك وفاة زوجها الأول وموت والدها دون أن يسأل عن ابنيها أو يستفسر عن إخوتها.

حكاية أسطورة

اشتهرت الطائف بالطفولة الدائمة من خلال الانتماء إلى نجد لارتفاع موقعها على قمة جبل غزوان، وتمددها نحو الشرق والشمال ولاشتهارها بهذا التميز كانت كرومها وبساتينها ذات مذاق خاص تجاوز حدود المكان.

جاءت الأيام مبشرة بعامر الطائفي امتداداً لشخصية أسطورية تدعى جابر رافقها الجميع وهي تجتاز الطريق من الطائف إلى مكة المكرمة عبر قرن المنازل راجلة ومع ذلك تصل قبل الراكبة.

عثر عليها ذات شتاء جثة هامدة في خندق حفرته إدارة الهاتف على امتداد طريق المطار لكي توصل خدماتها الجديدة إلى ضاحية الحوية.

عامر شخصية لطيفة دائم التحدث عن امرأة يعرفها. دخلت دائرة حكومية لتقابل الرجال ولم تخرج، وكان آخرون لا يحتفلون به لأنه صاحب حق ويستخفون بوجوده .

كانت هند ذات جمال باهر تملك داراً صغيرة ومزرعة

تضم زريبة غنم وخم دجاج. سلبها إياها أحد موظفي البلدية وهو يمت لها بالقرابة حيث باع المكان وطردها مع غنمها إلى الجبال.

ذات صباح التقت هند عامراً يحادث نفسه كما هي عادته أثناء اتجاهه راجلاً إلى مقر عمله. لم تدخل وراءه بل توقفت عند سور البناء مترقبة. وقع عامر في دفتر الدوام وخرج من المبنى وجلس على مقعد في فناء الدائرة فأشعل سيجارته متلذذاً بالمذاق ثم ارتفع صوته مخاصماً، هزت هند رأسها وواصلت طريقها.

أصبح عامر هاجسها. فتسللت ذات ليلة إلى داره فلم يتفوه بكلمة. وكانت تقوم بإعادة ترتيب الأثاث وإزالة الغبار، صعدت إلى الدور الأول حيث كان هناك مطبخ مؤثث وغرفة نوم فيها دولاب ملابس وسرير مفروش بغطاء أبيض، كل شيء جديد ومنظم، كما أن المكان نظيف بخلاف الدور الأرضي.

ـ لمن هذه الغرفة؟

سألت دون أن يهتم بالإجابة كمن يحادث نفسه ويتهم شخصاً مرائياً بسرقة فلوسه.

صرخت به:

ـ لمن هذه الغرفة؟

وهو يحدق فيها:

ـ غرفتك.

أخذت تضحك فقام من مكانه وانحنى أمام صندوق من الخشب. أخرج من الصندوق المقفل أوراقاً نثرها على الأرض.

ـ هذه سندات الأثاث وهذا عقد الزواج.

أخذت تقلب الأوراق محاولة معرفة ما فيها. جمعت الأوراق وخرجت وفي الصباح كانت تنتظر كاتب العرائض أمام باب المحكمة الذي اعتادت الجلوس أمامه ليدون شكواها التي لم يهتم بها أحد.

قرأ العجوز الأوراق كل سطر يخصها كما قال عامر. لم تدخل المحكمة على غير عادتها منذ عشرين عاماً، قامت بشراء علف وكيس خبز جاف لتحملها عربة أجرة إلى غرفتها وشبك الغنم، أنجزت الجزء الهام من يومها ثم عادت أدراجها.

ظل عامر في مكانه منذ غادرته ليلة البارحة. مدت يدها نحوه وما إن لامست أناملها وجهه حتى تداعى متهشماً مثل زير من الفخار، فخرجت راكضة وقد تغير مظهرها وابيض شعر رأسها وتقلص جسمها واختفى صوتها.

رواية أخرى:

عامر وهند بعد أن التقيا غادرا الطائف. وشاهدهما أكثر من شخص في صحن الكعبة بالحرم المكي.

ويقال: إن الدار التي اختفى الاثنان في داخلها في الطائف تضاء نوافذها صيفاً ويخرج من بوابتها ثلاثة أطفال: ولدان وبنت يلعبون في الشارع عصراً، ويشترون الحلوى من دكاكين الشارع ويختفون مع ارتفاع أذان المغرب.

ظاهرة:

في طريق الطائف-مكة وفي قرية السيل الصغير صخرة شكلها يحمل سمات وجه عامر وملامح هند في إهاب غزال.

صدر للكاتب

قصص قصيرة:

1) البحث عن ابتسامة، نادي الطائف الأدبي، الطائف 1396هـ/ 1976م، الدار السعودية، ط2/ 1985م.

2) حكاية حب ساذجة، نادي الطائف الأدبي، الطائف 1398هـ/ 1978م، الدار السعودية، جدة، ط2/ 1985م.

3) مساء يوم في آذار، شركة تهامة، جدة، 1401هـ/ 1981م.

4) انتظار الرحلة الملغاة، نادي القصة السعودي، الرياض، 1403هـ/ 1983م.

5) الزهور الصفراء، نادي الطائف الأدبي، الطائف، 1404هـ/ 1984م.

6) قالت إنها قادمة، الدار السعودية، جدة، 1407هـ/ 1987م.

7) الغـريب، مجلة الثقافة، دمشق، 1408هـ/ 1988م.

8) الانحدار، نادي الطائف الأدبي، الطائف، 1413هـ/ 1993م.

9) الرجل الذي مات وهو ينتظر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1415هـ/ 1994م.

10) الطيـب، مكتب الصحافة العربية، القاهرة، 1418هـ/ 1997م.

11) الحملة، نادي جازان الأدبي، جازان، 1423هـ/ 2002م.

12) الغياب، أصوات معاصرة، السنة 26، العدد 145، مايو 2005م.

13) المحطة الأخيرة، دار الفارابي، 2008.

شعر:

1) معاناة 1397هـ/ 1977م

2) بقايا وجود 1398هـ/ 1978م

3) مقاطع من أوراق عاشق 1407هـ/ 1987م.

المحتويات

في البدء 7
النهر 9
البكاء 15
الانحدار 19
الرقية 26
القطار 29
العشاء 35
المعاق 39
الصلاحية 42
الحافلة 46
العيد 48
الطريق 52
مـي 56
الرجل الذي مات
وهو ينتظر 59
تقاطع في خانة الآحاد 72
الظاهرة 85
مقاطع من حياة جرذ 88
السمكة 93
الحلم 97
نعيمة 102
الفاتورة 106
المكان 111
الرائحة 114
الثعبان 120
الطيب 124
المقال 126
القيافة 134
العطاء 138
الإرث 143
الغيل 146
الحملة 150

المربوط 156
الخلاص.. والجذور
الثابتة 160
المــــرأة 165
اليتيم 168
الباشق 170
النسخة الأولى 172
ملابس سوداء 173
مجنون أبحر 174
النجاح 176
المدرج 177
المواجهة 178
وجه 180
العجوز 181
البديل 182
توهج 183
بوح 184
السكين 185
الإسفلت 186
هتاف لحظة مبهمة 187
الشــحاذ 191
السنديــانة 194
هبة النسيم 197
حكاية أسطورة 200
صدر للكاتب 204